جديد. ألا تعتقد أن في ذلك مبالغة؟ فللصبر حدود، سواء فعلنا ذلك أم لم نفعل.

ـ لا يا عزيزتي إلدا، إنها امرأة عجوز مسكينة. ليس لها أحد في هذه الدنيا سوى ابنتها وأحفادها الثلاثة. لقد عاشت حياتها من دون أن تعتمد على أحد سوى على نفسها. حياتها مرّة: فقر وجوع منقطعا النظير. لم تعرف شيئاً في حياتها سوى هذه الآلام. وهذا نتيجة للاستغلال والقهر. لقد تحملت معاناة شعبها. لذلك يجب أن تشعر بتقديرنا لها حتى لو كان ذلك قبل الموت. ولهذا أريد أن أكون إلى جانبها.

مكثت إلدا جالسة على مقعدها كتمثال صامت. ثم رمقت إرنستو بنظرة قائلة:

ـ إرنستو، أرى أنك وضعت كل اهتمامك بتلك الجدة ماريا، لأنك تشعر بفراغ، وعدم ارتياح. لقد تحملت الكثير بسبب السفر المتلاحق. ناهيك عن تجربتك في غواتيمالا. كما أنني أراك تغرق في كتب ماركس ولينين. لكنك تتجاهل مسألة في غاية الأهمية ألا هي: أنه من غير المحتوم على معارفك الواسعة أن تتحول إلى ممارسة. وأنت لا تدري كيف تستخدمها. وكي لا تتحول إلى شخص سيء، إلى نمر هائج في قفص، أخذت باختلاق علاج لنفسك، هو الاهتمام بالمرضى.

تلقى إرنستو نظرتها باستغراب. فقد دهش من قدرتها على جعله يشكك بنفسه. واعتقد أنها تعرفه حقّ المعرفة، بعد أن سمّت الأشياء بأسمائها، وبعد أن حدّدت القضايا بوضوح تام. فلم يجد إجابة مباشرة، لكنّه هزّ كتفيه، ثم عقَّب قائلاً:

ـ ربّما تكونين على حق. فقد كنت أود وضع كل قدراتي وخبراتي كطبيب في خدمة الثورة. لكن، أين هي الثورة؟؟!

وهكذا غادر دون إكمال فطوره. وبعد عودته بدا وجهه

مكفهرّاً. عندها شعرت إلدا في سرّها أن المنيّة وافت الجدّة ماريا.

ـ لا تزال على قيد الحياة ـ قال إرنستو ـ لكنني أستبعد صمودها حتى الليل، ولا توجد أية وسيلة لإنقاذها. سأعود إلى المستشفى حتى أكون بالقرب منها ساعة الوداع.

ـ حسناً، افعل ما يريحك. لكن، ليس بالراحة النفسية وحدها يحيا الإنسان. بل من الضروري أن تتناول شيئاً من الطعام، وأن تستلقي ولو قليلاً.

ـ سأتناول شيئاً من الفاكهة.

ماتت الجدة ماريا في تلك الليلة، وهو جالس إلى جانبها. عبّر عن مشاعره بأسطر من الشعر ذيَّلها بالأبيات التالية:

السلام على رفاتك يا ماريا العجوز
السلام على رفاتك أيها المحارب القديم
اقسم أن أحفادك سيجدون فجراً جديداً!.

* * *

لقد توطدت العلاقة بسرعة بين راؤول كاسترو وإرنستو. فكلاهما كان في المكسيك بعيداً عن وطنه، وكلاهما كان يعيش مرارة الهزيمة. والاثنان كانا ينضحان حقداً على طغاة أميركا اللاتينية. وكلاهما كان طموحاً لتنظيف القارة من استغلال الاحتكارات الأميركية الوحشي. كانا يلتقيان مرّة في الأسبوع، وبشكل منظّم.

كذلك استطاعت إلدا أن تجد لغة مشتركة مع صديق إرنستو الجديد، لكثرة ما كانت نقاشاتهم تستمر حتى الصباح.

كان راؤول مقتنعاً ـ حتى العظم ـ من إمكانية انتصار الثورة في كوبا. بالرغم من فشل الهجوم على ثكنة مونكادا، واعتقال منظمي الهجوم لفترة طويلة. وكان راؤول لا يتوانى عن ترداد:

ـ لقد تعلمنا الكثير بعد الاقتحام الفاشل. فتلك الأخطاء لن

تتكرر بعد اليوم. وسنقوم بمحاولة جديدة، خصوصاً أن هذا النضال مهم جداً ليس لكوبا فقط، بل لأميركا اللاتينية بأسرها.

كان إرنستو يشعر بانتعاش في كل مرّة كان يتحدث بها راؤول عن السمة الأممية للثورة: «تحرير أميركا اللاتينية بكاملها... تقديم مثال... عدم تكرار الأخطاء التي وقعوا بها في غواتيمالا وبوليڤيا والمكسيك... على الثورة أن تحمي نفسها...».

قال راؤول معبراً عن مشاطرته الرأي:

ـ إن من شهر السلاح مرّة واحدة في وجه الامبريالية لا يمكن أن يسقطه من يده، وإن فعل فالامبريالية ستحفر قبره.

لقد ترك اختلاط إرنستو بالكوبيين أثراً عميقاً في نفسه. فالحزم والعزيمة الفولاذيان يملآن صدر هذا الشاب راؤول. وكل الذين اختلط بهم من الكوبيين المحيطين به، تركوا لديه انطباعاً أنهم أناس يملكون ما يكفي من البطولة لترجمة طموحاتهم إلى واقع.

علم إرنستو من راؤول أن أخاه فيدل قد وصل إلى المكسيك قبل فترة قصيرة للقائهما الأول في بيت ماريا أنتونيا. وهي امرأة كوبية من مؤيدي «حركة 26 تموز»، سرعان ما تحول منزلها إلى قاعدة عسكريّة تمتلىء بصناديق الأسلحة، والكتب التثقيفية، وزجاجات الوقود. للوهلة الأولى بدا لإرنستو أن هذا البيت مجرد محطة مرور للكوبيين. وأن أحداً منهم لم ينوِ البقاء طويلاً فيه. إنما هو عبارة عن مكان لإعادة ترتيب أوضاعهم بعد فشل عملية مونكادا العسكرية.

إن أول ما لفت انتباه إرنستو بفيدل كاسترو تلك العينان اللتان كانتا تحيطان بكل ما يدور حوله. وتشاركان بنشاط في الحديث، من خلال تأثيرهما وعكسهما لانطباعاته:

ـ يسعدني أن أراك محرراً.

شدّ فيدل على يده مجيباً:

ـ وقع باتيستا(*) في خطأ قاتل عندما أطلق سراحنا. فهو يشعر بأمان وارتياح بعد أن عرض طيبة قلبه أمام الناس. لقد أصدر عفواً عاماً تحت ضغط النضالات الحثيثة للجماهير الكوبية العريضة. وهذا الحدث يعني عنده أنه ليس بإمكاننا الضغط عليه من الخارج. حيث بإمكانه تدميرنا! لكن، إما أن نحقق الحرية أو نبقى معذبين!

لقد استمر الحديث طيلة الليل، استرسل فيه فيدل بحديث مفصّل عن الأشهر التي قضاها في السجن.

ـ لم يكن السجن مضيعة للوقت. فقد مارسنا التثقيف الذاتي، واستطعنا تحويل السجن إلى مدرسة للكادر. حتى أننا قرأنا «رأس المال» لكارل ماركس، وناقشناه.

ـ كيف اتفق لكم تهريبه إلى داخل السجن؟

ـ كان ذلك أمراً سهلاً. لقد حجزنا الكتاب بشكل رسمي. قلنا للحرس إننا نريد أن نصبح أعضاء صالحين في المجتمع. وعندما يصدر العفو عنّا سنعمل في التجارة. فاعتقدوا أن «رأس المال» منهاج ضروري لموظفي البنوك ورجال الأعمال.

رأى إرنستو في ذلك تاريخاً ممتعاً، فضحك من أعماقه. وهذا الفيدل أعجبه. فهو لم يكن يتمتع بشجاعة وحزم منقطعي النظير فحسب، وإنما كان صاحب نكتة أيضاً.

لقد ظهر اسم فيدل في وسائل الإعلام لأول مرة عندما قاد اضراب العمال الزراعيين ضد والده. وكان أحد قادة الجناح اليساري في حزب الشعب الكوبي. وناضل ضد مهادنة حكم الديكتاتور باتيستا، وفي تموز من عام 1953، قام مع أعضاء حركته باقتحام ثكنة مونكادا العسكرية في مقاطعة سنتياغو ـ دي ـ

(*) باتيستا: حاكم كوبا حتى ثورة 1959 المظفرة بقيادة فيدل كاسترو ورفاقه. (المترجم).

كوبا بهدف تطوير النضال. وكان يمكن لهذه المحاولة أن تكون بداية انتفاضة مسلحة، لكنها منيت بالفشل. رغم ذلك، لم تتأثر مكانته السياسية قيد أنملة، بل على العكس من ذلك، ازدادت جماهيريته نتيجة لهذه المحاولة.

كل ذلك كان معلوماً لدى إرنستو من أحاديث راؤول وكوبيين آخرين. لكن الفترة التي قضاها مع فيدل نفسه جعلته يعرف الكثير عنه، ويكوِّن انطباعات أوسع مما سمع. فهذا الإنسان لايشكك في إمكانية تشكيل فرقة كاملة تذهب إلى كوبا، وتوجه ضربة قاضية إلى ذلك الطاغية، وتنهيه إلى الأبد.

لقد أصابت إرنستو عدوى التفاؤل عند فيدل، رغم ما يبدو للوهلة الأولى من عدم قابلية ذلك للتحقيق، وأنه دون فائدة. لكن مسألة النصر. بدت في أحاديث فيدل وكأنها شيء مفروغ منه. نعم، بصحبة هكذا إنسان لا تخاف الانطلاق إلى وهج النار أو إلى أعماق البحر.

وعلى الرغم من الشك الذي كان ينتاب إرنستو عن واقعية الفكرة، إلاّ أن التفاؤل دخل إلى أعماقه. وأصبح على استعداد تام للقتال من أجل تحرير أميركا اللاتينية. ولتكن نقطة الانطلاق من أية بقعة في هذه القارة.

* * *

في ذلك المساء، قدّما هديّة لنفسيهما ـ سهرة في مطعم. فالإنسان، في نهاية الأمر، لا يتزوج كل يوم. وبينما كان إرنستو يعضّ على عظمٍ ـ وهذا أحب الأشياء إليه ـ كانت إلدا تطلب زجاجة أخرى منَ النبيذ الأحمر.

بعد أن انتهى إرنستو من التهام كل ما كان في صحنه من الطعام، قال:

ـ كم كنت أرغب في أن يكون فيدل شاهداً على قراننا. لكن للأسف، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

ـ وكيف ذلك؟ ألن يحضر عقد القران حتى يكون شاهداً؟

ـ قال لي إن أوراقه الثبوتية ووثائقه ليست على ما يرام ـ أسرّ إرنستو لإلدا ـ لكنه يرغب في حضور الحفل. وطبعاً ليس بشكل رسمي، لأن مباحث المكسيك وكوبا والولايات المتحدة تلاحقه في كل مكان. فيجب أن يكون حذراً كالشيطان. وراؤول يستطيع القيام بمهمة الحراسة كما أن خيسوس مونتانه سيحضر من أجل ذلك أيضاً.

قرأ إرنستو في عيني إلدا سعادة كامنة، ولمحة حزن أيضاً:

ـ أتدري يا إرنستو، أشعر في بعض الأحيان بخوف من هذا القران. ورغم كل شيء أبقى أكبر منك بعشرة أعوام، حتى يخيّل إليّ في بعض الأحيان أنني أمك...

أخذ إرنستو يديها بين يديه وقال:

ـ أتدرين يا إلدا، تمرّ عليّ أوقات أشعر فيها أني بحاجة حتى إلى أم.

* * *

حضر فيدل ضيافة إرنستو وإلدا. وكان له مع إلدا حديث عن قضايا الثقافة والتراث، سرعان ما انتقل إلى موضوعه المحبب ـ الثورة الكوبية.

ـ حت لو افترضنا أن المسألة كما تقول ـ قالت إلدا ـ إذاً، لماذا أنتم هنا، وليس في كوبا؟

ـ سؤال جيد. كما ترين، بعد أن قام باتيستا بإطلاق سراحنا، وبعد أن أخذ يتباهى بطيبته في كل زاوية، وبعد أن حاول الحصول على أكبر رأسمال سياسي ممكن من وراء العفو العام، وجه في الوقت نفسه حرسه وعيونه علينا. كذلك حاولوا إلصاق

تهمة تفجير مبنى السينما براؤول. لهذا بالضبط كان أول القادمين إلى هنا. أما أنا فقد كتبت عدة مقالات في صحيفة «لاتاليه» السياسية، ويبدو أنها لاقت نجاحاً كبيراً، إذ ارتفع عدد النسخ المباعة من الصحيفة إلى عشرين ألف نسخة. عندها أغلق باتيستا الصحيفة، فتوجهت إلى وسائل إعلام أخرى. لكن، تمّ الحظر على الإذاعة والتلفزيون وكافة الصحف، ومُنعوا من القيام بنشر أو استخدام أي مقالة من مقالاتي. واتسعت الحملة لتشمل كافة المعادين للنظام، الذين يقفون بصلابة في صف المعارضة. فكيف يمكنني أن أتحرك في هكذا ظروف؟ ناهيك عن سؤال يطرح نفسه، وهو: أيّ بلد هذا، وأية ظروف؟ لذلك يجب تشديد النضال من أجل تغيير الوضع القائم، لا أن ننتظر المنّ والسلوى!

ـ وحدكم ضد دولة بكاملها؟ تساءلت إلدا باستغراب.

ـ لقد قال خوسيه مارتي ما معناه: إن جوهر المسألة لا يكمن في: كم من السلاح تملك في يدك، وإنما كم نجمة في السماء تريد أن تصطاد! وهكذا أرى المسألة. أما النقاشات البيزنطية، والمهازل، فقد ولّى زمانها، وحان وقت العمل. ربما تعتقدين أنني أبني قصوراً في الهواء! أو تتجمع حفنة من الرجال، وتركب السفينة ـ وهذه ثورة! لا. فنحن لا نناضل بدلاً عن الشعب، إنما مع الشعب. وفي ذلك بالضبط تمكن قوتنا. لقد شكلنا «حركة 26 تموز» قبل مغادرتي كوبا، وهي لن تكون مجرد تغيير في الاسم لذلك الإطار الذي يضمني مع أصدقائي الذين اقتحموا الثكنة. أوه، لا! في البداية، بلغنا عدة آلاف حتى ذلك الوقت، ومنذ ذلك الحين أخذ عددنا يتزايد، وانضمت إلينا عدة منظمات. ومع انضمام: أرماندو خارتا، وفرانكا بايسي، وخاوستينو بيريس، ومناصريهم، حققنا انضمام ثوريين حقيقيين. وهكذا جمعنا قوانا ودخلنا في حزب الشعب الكوبي.

فكّر فيدل للحظات، ثم استرسل قائلاً:

ـ أتعتقدين أنني أبالغ في حجم لا أساس له في الواقع؟ في المؤتمر الأخير للحزب، قام فاوستينو خارنا، في بداية المؤتمر، بقراءة رسالتي أمام المندوبين، تلك الرسالة التي قلت فيها إن الكفاح المسلح هو الوسيلة الثورية الوحيدة القادرة على الإطاحة بالديكتاتورية. فصفّق لها وقوفاً خمسمئة مندوب من كافة أرجاء كوبا. وأقرّت الرسالة في البرنامج. فالكراهية المتعاظمة ضد باتيستا تدفع للبحث بديناميكية ونشاط فائقين، عن مخرج للبلاد من هذا الوضع المتعفن. وبعد المؤتمر، بدأت القيادة الحزبية تعمل كل ما في وسعها من أجل ترجمة قراراته وتوجهاته على أرض الواقع. ومن جهة ثانية، ظهرت جاهزية النضال ضد باتيستا بشكل عميق وواضح، وهذا هو المهم. فما هو المطلوب الآن، بالاستناد إلى القاعدة الجماهيرية المجمعة على كراهية باتيستا، هو تحديد مهام المستقبل بوضوح، وعندها فقط يمكننا المراهنة على النجاح أيضاً!

ـ حتى لو افترضنا أن هناك حزباً واحداً اتفق على هذه المهام. فهل هذا يكفي؟

ـ ليست القضية قضية حزب واحد، إنما في مدى قدرتنا، نحن الثوريين على التعبير عن آمال شعبنا وطموحاته، وفي مدى تنسيق خطواتنا مع هذه الآمال.

قال ذلك فيدل، وهو يرفق حديثه، بين الحين والآخر، بحركة من يده.

يوجد الآن في كوبا ما يزيد على سبعمائة ألف عاطل عن العمل، وخمسمائة ألف عامل زراعي يعملون في ظروف يرثى لها. كما خفِّضت رواتب أربعمائة ألف عامل وموظف. أما في التعليم، فنسبة الأمية وصلت إلى 40%. والخدمات الطبية حدّث

ولا حرج، فالمستشفيات، كما المدارس، وجدت لمن تسمح له جيوبه المنتفخة بالدخول إليها. هذا هو واقعنا، كما هي الحال في غواتيمالا أو البيرو. واعلمي يا إلدا أن هذا الواقع موجود في كافة بلدان أميركا اللاتينية دون استثناء. فمن يتمكن من حيازة ثقة الشعب، ويبرهن على استعداده لتقديم حياته في النضال، فإن الشعب سيسير وراءه حتى نهاية المعركة. وشعبنا يتمتع بتقاليد غنية فيما يخص العمل المسلح. وإذا رأى قضية أو هدفاً عادلاً، فإنه مستعد للقتال ضد الطغيان حتى النهاية.

ـ لكن الدعم الجماهيري لا يأتي بسهولة ـ علق إرنستو.

ـ لا، طبعاً. أجابه فيدل ـ ولهذا بالضبط يلزمنا تنظيم فولاذي. وعلينا أن نبذل ما في وسعنا من أجل رصّ صفوف كافة القوى التي تعلن عن استعدادها للنضال ضد الديكتاتورية.

رغم كل ذلك، لم تغيِّر إلدا نبرتها المشككة:

ـ أوَليس بالإمكان اتباع وسائل سياسية في النضال ضد الديكتاتورية؟ العمل المسلح! هل يُعقل أن لا بديل عن هذه الطريقة، وكأنها سنّة؟

ـ آه، لا شك أننا ندرك أيضاً أهمية النضال السياسي ضد باتيستا. إذ من دون النضال السياسي لا يمكن الحديث عن عمل مسلح فعّال. فنحن لا نسعى من أجل التمرد أو العصيان فقط، بل نسعى مع الشعب وسلاحنا بأيدينا، وسنقود المعركة ضد الديكتاتورية. وهذه المسألة تعتبر في غاية الحساسية والأهمية. أما فيما يتعلق بسؤالك: هل هناك ضرورة للعمل المسلح. أليس هذا ما تقصدينه من ملاحظتك يا إلدا؟

ـ بالضبط.

ـ لقد وصفت لك منذ لحظات ما قمت به قبل قدومي إلى المكسيك، وخصوصاً قضايا التحالفات، وتأكيد أهمية العمل

المسلح كنهج نضالي. وهذه هي مهمة جميع المناضلين بالفعل ضد باتيستا، وليس بالقول والحلم. وهنا ينطرح سؤال: كيف يمكننا التقيد في النضال بأساليب سياسية فقط؟ وكيف يمكن أن يكون هذا النضال ذو الوجه الواحد؟ علينا أن ننظر إلى المسألة من جوانبها كافة، فهناك أناس يتحدثون عن العودة إلى الحياة الديمقراطية والعمل عبر الانتخابات العامة. فلنفترض أن هذه الانتخابات جرت، فأية انتخابات ستكون تلك التي يمسك بكل خيوطها باتيستا؟ ستتحول إلى مهزلة ليس لها مثيل. يوجد حل واحد وحيد هو: انتخابات من دون باتيستا، ومن دون جهاز قمعي. ولم لا يكون ذلك؟ لكن، من يقتنع أن باتيستا سيتنازل عن الناي الذي صنعه لنفسه، أقصد كوبا؟ ومن يقنع أنه سيحيل شركاءه وأتباعه، القتلة والسفاحين، الساديين المتلذذين بالعنف، والذين يشكلون حرسه الخاص، من يقتنع أنه سيحيلهم على التقاعد؟ هذا كله حلم يفتقر إلى أي أساس واقعي، إنه قصر في الهواء، يتلاشى عند اصطدامه بصخرة الواقع. لذلك، يجب أن نناضل. ولن نحقق العدالة بالابتهال والتضرع والتعاويذ. وعلى الشعب بالذات أن يقوم بهذه المهمة ـ مهمة النضال!

ـ لكن، كم من الضحايا ستسقط ثمناً لهذا الصراع؟

ـ أرجوك يا إلدا. افهميني جيداً: فنحن لن نبخل بدمائنا، لا أنا ولا أي رفيق من رفاقي، من أجل قضية سامية. ونحن لا نبحث عن سيجار من أجل المشاجرة. وأنا أحقد على العنف، لكن، بما أن القوة والعنف الدموي استخدما لفترة طويلة ضد شعبنا الكوبي، فأنا أختار هذا النضال.

ـ هل تستبعد إمكانية القضاء على هذه الثورة من قبل جنود باتيستا؟

وجّهت إلدا سؤالها إلى فيدل، لكن إرنستو شعر وكأنه موجه إليه.

ـ طالما أن القهر موجود، فسيكون هناك من يناضل ضده. لقد مرّت على أكتاف أجدادنا ثلاث حروب ضد الاسبان، حتى تمكنوا أخيراً من الانتصار. وانتصروا لأنهم ناضلوا من أجل هدف سام ـ من أجل الحرية. لقد سقط خوسيه مارتي، لكن الاستقلال كان حليف شعبه. وعلينا أن نكمل طريقه النضالية!

ألقت إلدا نظرة مراقبة على فيدل، وهو يتابع فكرته:

ـ ربما تبدو كلمات قاسية يا إلدا. فإن سألتني لماذا أناضل؟ فسأجيب: لأنه لا يمكنني أن أنظر بلا مبالاة إلى طفل يتسكع جوعاً، ولأنني أتمزق ألماً عندما أرى شحاذاً، ولأنني لا أتحمل الظروف اللاإنسانية التي يحيا بها الإنسان في وطني بشكل قسري.

ـ ربما كانت تلك قسمة مكتوبة على شعوب أميركا اللاتينية!

كان من الممكن أن يلحظ شيئاً من الخبث في ثنايا كلمات إلدا.

ـ للأسف، هذه الفلسفة الجبرية منتشرة بشكل واسع. قال فيدل مجيباً، وفي عينيه شيء من الحزن. لكن، هذا لا يعني أنها حقيقة أبداً. فنحن سننتصر، وستكون أولى مهماتنا: إجراء الاصلاح الزراعي. وسنعطي الأرض لمن يزرعها، وستعود حقوق العمال إلى حيويتها وقانونيتها. بالإضافة إلى وضع قانون يحمي العاملين من وحش البطالة. وسنخفض أجور السكن، هذه المشكلة المرعبة يضطر العامل فيها إلى دفع 20 ـ 30% من أجره إلى الرأسمالي بمثابة أجرة سكن. كما أننا سنعمل على تأمين الطاقة الكهربائية، وكل مصادر الطاقة الأخرى. بالإضافة إلى تأميم شركات الاتصال والبرق. عندها نشرع في تصنيع البلد، والدستور يستعيد مضمونه الصحيح وفاعليته. من أجل ذلك سيكون إلى جانبنا كل الشعب الكوبي. وإذا استشهدنا، سيرفع الآخرون سلاحنا، ويستمرون في الطريق، مثلما نسير نحن على

درب النضال التحرري الذي سار عليه خوسيه مارتي ورفاقه. لقد صاغ خوسي مارتي المبادىء النظرية الأساسية، وقام بتعميق فكر سيمون بوليڤار حول أميركا اللاتينية، من أنها جوهرياً أمة واحدة. وأشار أيضاً إلى أن النضال في كوبا متمم لنضالات شعوب أميركا اللاتينية الأخرى. كما حذّر من خطورة التبعية للولايات المتحدة، لأنها تهدد حرية كل بلدان أميركا اللاتينية. وتبعاً لروح هذه المبادىء نكمل المسيرة.

بعد مغادرة فيدل، جلس إرنستو بالقرب من إلدا، اقترب منها صامتاً، وأخذت أصابعه تداعب وجهها بنعومة متناهية.

ـ إرنستو، إنني أفهمك، وأتخيل نفسي مكانك. لكن، بالرغم من كل شيء، فمن الصعب عليّ أن أستوعب كل ذلك. لقد فكّرنا في السفر إلى الهند، أو بالأحرى، كان بودي أن أسافر إلى الهند. وكنت ترغب في السفر معي إلى الصين. كنا قد عقدنا العزم على التجول في أوروبا وأفريقيا. لكن أوضاعنا المالية غير مشجعة، وكنا قد قررنا تسويتها معاً، فمن السهل عليك أن تصبح بروفسوراً بفضل أبحاثك الطبية القيمة، ولو حصلت على هذا اللقب نستطيع تحقيق أحلامنا.

استمر إرنستو في صمته.

ـ إرنستو، ستترك امرأة حاملاً. سأبقى وحدي مع الطفل، مع طفلنا.

ـ أعرف ذلك يا إلدا. صدِّقيني، لم يكن قراري بتلك السهولة، لم يكن سهلاً أبداً، لكنني لا أستطيع التصرف عكس ذلك.

وقفت إلدا، وألقت بنظرتها عبر النافذة، موجهة ظهرها له، وهي تراقب بزوغ الفجر.

تحسست بطنها بكفَّيها، الجنين لم يتحرك. اقترب إرنستو منها وضمها قائلاً:

ـ أرجوك يا إلدا أن تفهميني. أنا لا أملك الحق في أن أتصرف وكأنني لا أفهم شيئاً من هذه الحياة. لقد درست هذه القارة جيداً، وأحست بجمالها الجنوبي، كذلك بالاستغلال الشيطاني الذي يملأها. هذا الاستغلال الذي يجب عليّ تصفية الحساب معه. فلا يمكنك أن تطلبي مني خداع نفسي!.

* * *

دخل إرنستو الغرفة وهو يصرخ:

ـ إلدا، لديّ مفاجأة!

أخذها من يدها، وهي مرهقة من الحمل. سار بها نحو المقعد المثقل بالكتب، كما هي حال زوايا الغرفة. رمى بالكتب على الطاولة، وهي متعددة العناوين ما بين روايات سوفياتية وكتب اقتصاد وأعمال، وأبحاث طبية.

ـ اجلسي. لقد اشتريت لك الأسطوانة التاسعة لموسيقارك المحبب بتهوڤن.

كانت إلدا تتحسّس الجنين.

ـ إرنستو، إنه يتحرك.

لم يكن لإرنستو أن تحسس بعد ولو مرّة واحدة حركة ولي العهد. مد يده، لكنه لم يتحسّس أيّة حركة.

كانت في تلك الأيام تجري، دون كلل، استعدادات فرقة كاسترو للحرب الأنصارية. ومع ذلك، كان إرنستو يقضي بعض أوقاته في لعب كرة القدم، وكرة السلّة، وفي مطالعة كتب الاقتصاد. لكنه لاحظ أثناء تدريباته الأخيرة أنه لم يعط انتباهاً كافياً لإلدا، ورغم ذلك، بقي مشدوداً للحملة القادمة على كوبا.

ـ ألن تدير هذه الأسطوانة،. ماذا تنتظر؟ قالت إلدا بعد أن نفد صبرها.

اقترب إرنستو من الجهاز، وكأنه يحمل بين يديه شيئاً مقدساً.

وضع الإبرة فوق الأسطوانة، وعلا في الغرفة صوت موسيقى الجاز. ارتسمت على شفتي إرنستو ابتسامة، أعقبها بحركات راقصة من يديه.

نظرت إليه إلدا دون أن تعي شيئاً مما يدور حولها.

ـ ماذا حلّ بك يا إلدا؟ ألم تعجبك الموسيقى؟ أن بتهوڤن من الدرجة الأولى كما أعتقد.

ـ أعتقد ذلك. لكن تمهّل، عليك أن توصل الجهاز بمكبر الصوت، وإلاّ أنت تستمع إلى المذياع فقط!.

* * *

يجب أن يصل رفيقهم الجديد الآن، في تلك اللحظة التي كان فيها الجنرال بايّو يقرأ محاضرة نظرية. وصل الجديد بصمت. انضمّ إلى المجموعة، وجلس بهدوء يستمع إلى المحاضرة.

أعاد إرنستو كل ما قاله الجنرال بايّو، وركَّز على اللغة العسكرية، والمصطلحات التي لم يكن يعرف عنها الرفاق إلاّ القليل. كان إرنستو يترجم بعض الكلمات العلمية إلى لغة بسيطة يفهمها الجميع. ألقى نظره على الرفيق الجديد، فدهش من المفاجأة، إنه يعرفه، لكن أين؟ في الوقت نفسه كان الزائر ينظر إليه بملء عينيه. لكنهما استمعا إلى المحاضرة دون انقطاع حتى النهاية. وما إن انتهت المحاضرة حتى توجّه كل منهما نحو الآخر.

ـ ألست أنت إرنستو غيڤارا؟

ـ بالضبط، واسمك أنت سلاي!

ـ بالضبط. منذ متى انضممت إلى «حركة 26 تموز؟

ـ ليس منذ وقت طويل، بعد وصولي إلى المكسيك.

اقترب منهما الجنرال بايّو:

ـ مَنْ؟ معارف قدامى من معارك غابرة؟

ـ ربما هذا الكلام كبير. قال إرنستو ضاحكاً. لقد تعارفنا في منزل والده، الذي كان ملتقى الثوار من كل أميركا اللاتينية. توقفت فيه أثناء قدومي إلى المكسيك، وكان بصحبتي بعض الغواتيماليين. لقد قضينا ليلة في الحديث عن الأحداث المؤلمة في غواتيمالا.

فكّر بايّو قليلاً، وهو يمسك بلحيته، ثم قال:

ـ إذاً، أنت أرجنتيني وأنت مكسيكي. كم هو رائع أنكما ترغبان في المشاركة لتحرير كوبا.

ـ نحن من أميركا اللاتينية. قال إرنستو، ثم استرسل: وكوبا الآن هي المكان الذي اختمرت فيه ظروف أفضل لقيام الثورة. لقد حان الوقت لعمل جديد بعد هزيمة غواتيمالا. وأنا على استعداد للقتال ضد الطغاة في أي بلد كان. ولمَ لا يكون هذا البلد كوبا؟

«إما الوطن وإما الموت!»

كانت ليلة عاصفة، حتى أن السفن الكبيرة منعت من الخروج إلى عرض البحر. وبدت على سطح الماء بقع تشكلت من رذاذ المطر المتعانق مع مياه البحر بعد طول غياب.

سار اثنان وثمانون رجلاً نحو ميناء توسبان، كانوا يسيرون بخطوات هادئة وهم يحملون على أكتافهم الأثقال. هناك في الميناء، كان يرسو «غرانما»، ذلك اليخت الأبيض المزيّن، الذي تبلغ حمولته القصوى ستين شخصاً. لقد سجِّل في إدارة الميناء كسفينة تستعمل من وقت لآخر لصيد الأسماك.

كانت عملية الشحن صعبة للغاية، لم يشعل النور، وابتل الرجال بالماء. لكن، لم يسمع صوت واحد من أولئك الرجال، أما إرنستو فقد حاول جاهداً السيطرة على سعاله:

ـ هل ستسير الأمور كما يجب؟ تساءل في نفسه، فهذا عدد كبير من الرجال على سفينة صغيرة، ناهيك عن صناديق الرصاص والسلاح الثقيلة. أما الطعام، فلم يبق له من مكان. والخروج إلى سطح السفينة ممنوع إلاّ عندما نصبح في عرض البحر. يجب ألا يرانا أحد، وإلاّ من الصعب أن يصدق حرس الميناء أن اثنين وثمانين رجلاً غادروا على هذا اليخت الصغير طلباً للصيد.

مدّد صندوقاً على سطح الباخرة، ومسح وجهه المبلل بكمِّه: «يا للشياطين، لقد نسيت! قال إرنستو في نفسه بعصبية، الآن سيرفع الربو حرارتي، ونسيت المكيف اليدوي، كم من مرَّة ذكّرتني إلدا به. لكن، أنّى لي أن أتذكره في معمعان التحضيرات والمسائل المهمة التي كان يجب إنجازها».

ـ هيا! لم يبق لدينا وقت. بالنسبة لبقية المواد الغذائية، على كل حال، لن يكون لها مكان.

كانت كلمات فيدل بمثابة الدافع للرجال إلى داخل المركب، فأخذوا يتدفقون إلى المركب. ووصل القسم الأول منهم إلى سطح السفينة، لكن البقية لم تعترض على ذلك نظراً لضرورة التزام الصمت.

هل سيتمكن هذا المركب المثقل من التحرك خارج المرسى؟ وهل سيصل إلى المكان المحدد في الموعد المحدد؟

بدأ الرفيق الميدا، صاحب البنية الصغيرة، بعدِّ الرجال ليتأكد من وجود الجميع قبل الانطلاق.

سحب راؤول كاسترو أحد صناديق الذخيرة، وقال مردداً كلمات فيدل: «إما أن نتحرر أو نبقى معذّبين« أليس كذلك؟

ـ احذر الصندوق.

وقع قسم من الصناديق على الأرض بسبب اتكاء أحدهم عليها.

ـ اصمتوا الآن!

قطع المركب أحد عشر ميلاً دون إشعال أي ضوء. وساد جو جديّ في مختلف الكابينات. جلس المقاتلون بوجوه تعبة من جراء الحمولة الشاقة. كما أن كلاًّ منهم ترك شيئاً ما في الوطن: زوجات، أطفالاً، أعمالاً. وينتظرهم نضال شاق لا ينتهي، إلاّ بنتيجة واحدة: إما النصر وإما الشهادة.

عند وصولهم إلى كوبا، ستبدأ ضدهم حرب شعواء، كأنها موجهة ضد وحوش. لكن، عليهم أن يبقوا على قيد الحياة من أجل تحطيم جيش باتيستا. خرجت هذه الكلمات من فم فيدل ببساطة متناهية، رغم أن القليل منهم لديه خبرة قتالية.

شعر إرنستو بقلبه يدق، أيمكن أن يكون هذا صوت المطر المتساقط؟ أم أن أمرهم اكتشفته سفينة مكسيكية تحرس الميناء؟ فهل من المستبعد أن تبدأ باطلاق النار عليهم لحظة خروجهم من الميناء؟ لقد كانت الحمولة في المركب بما لا يدع مجالاً للهرب أو للاختباء.

لكن، من الواضح أنهم يسيرون، حتى الآن، بحسب الخطة المرسومة، إذ تخطوا شبه جزيرة يوكاتان، وأخذت الأمواج تلاطم مركبهم من المقدمة والمؤخرة، وكانت تهددهم بالخطر لارتفاعها الذي يزيد على أربعة أمتار.

كان «غرانما» محملاً فوق طاقته، فكان صعباً على إرنستو أن ينتقل من مكان إلى مكان داخله. فجأة، بدأ أحدهم يستفرغ بسبب الدوار.

ـ أيها الرفاق، أشعر بالضيق.

ـ وعاء! هاتوا وعاء!

ـ أين العلاج البحري؟

ـ أنا أيضاً بحاجة إليه.

ـ وأنا أيضاً.

ـ إرنستو، ألست طبيباً! أين أقراص الدوخان!

هزّ إرنستو كتفيه. أمعقول أن أكون قد نسيت الدواء أيضاً؟

ـ لكن، هنا لن تجد شيئاً، انظر إلى هذه الفوضى، كيف ستبحث؟ قام عدّة شبان يبحثون، كالمجانين، عن الدواء، شقوا الأكياس، وفتحوا الصناديق.

فجأة، صرخ عدد من الكوبيين:

ـ تعيش كوبا.

ـ ستنعم كوبا بالحرية.

ـ الحرية أو الموت.

بعد ذلك غنوا النشيد الوطني الكوبي، ونشيد «حركة 26 تموز».

ـ لقد خرجنا من منطقة الأميال الثلاثة. أصبحت المكسيك وراءنا! نسير الآن باتجاه كوبا!

مسح عدد من المقاتلين دموعهم عن أعينهم، وصفق آخرون بالأيدي. كان الجميع يغنّون. كل ذلك كان تعبيراً عن الفرح بكل معنى الكلمة. كانوا على ثقة كبيرة إلى درجة أنهم لم يعرفوها من قبل. سيكون كل شيء على ما يرام.

كان الرجال ممدّدين على الأرض بلا حراك، وهم غارقون في عرقهم والرائحة النتنة. وجوههم صفراء، والهواء فاسد. أدخل أحدهم رأسه في السطل، فخرج وجهه أكثر اصفراراً. كان النقص في المواد الغذائية مخيفاً. لذلك كانت توزع بالحصة وتحت رقابة مشددة. لم ينجُ من الدوار البحري سوى خمسة مقاتلين. أما إرنستو فجلس على صندوق من الذخيرة، وهو في حالة تعب شديد بسبب الدوار والربو.

لقد نال كل منهم قسطه من الإرهاق. ومما زاد الطين بلّة، أن اليخت بدأ يمتلىء بالماء بسبب ثقب فيه، على ما يبدو، وأخذ مستوى الماء يرتفع داخل المركب ببطء.

ـ أرغب في القتال ضمن مجموعة فدائية في الجبال، أو أنظم أعمالاً سريّة في المدن لكنني لا أستطيع أن أكون قرصاناً ولا أريد ذلك! قال المكسيكي «سلاي» ذلك بصوت منخفض وهو يحاول الجلوس قرب إرنستو.

في هذه الأثناء، مجموعة من المقاتلين، ممن بقوا في حالة جيدة، أخذت ترمي كل شيء يمكن الاستغناء عنه خارج السفينة، وخصوصاً الماء، حتى يخففوا من وزن السفينة التي كانت مهددة بالغرق.

ـ سنغرق إذا لم نجد الثقب! يجب أن يكون في مكان ما هنا!

قام إرنستو بالتسلل إلى التواليت، وكان جسده مغطى بالأوساخ، فراودته رغبة في الاغتسال. لكن، أمسكت به تلك اللعينة، فقفز عدد من المقاتلين من نومهم، شعر عندها كم هو منحوس في حياته وغير سعيد. بعد لحظات، صرخ صرخة دوّت في جميع أرجاء المركب، لقد اكتشفت الثقب. في البداية، لم يصدق ما رأته عيناه، لقد نسي أحدهم اغلاق الحنفية. كان خوفهم قد وصل إلى حد التفكير برمي السلاح والذخيرة في البحر. فما كان منه إلاّ أن صرخ بأعلى صوته: «مشكلتنا حنفية غير مغلقة! غير مغلقة! لا داعي لرمي أي شيء. ولا يوجد ثقب!».

تجمع المقاتلون حول المذياع، وكان الإجهاد والاضطراب باديين على وجوههم. هناك أخبار من كوبا: بدأ فرانك بايس بالانتفاضة، وقام المقاتلون في سنتياغو ـ دي ـ كوبا باطلاق النار واحتلال مراكز البوليس.

ـ عاشت كوبا! عاشت الثورة!

بدت السعادة على وجوههم: ففي كوبا توجد بالفعل حركة مقاومة نشيطة. هناك رجال ونساء من الفولاذ. هب الشعب للنضال.

ـ نادوا فيدل! أخبروه! سيكون في سعادة عظيمة.

جلس إرنستو بين المقاتلين، لكنه لم يستطع التمييز بين انفعالاتهم. لقد ضُمّ إلى القيادة العليا، وكان أكثر من غيره

مشغولاً باستراتيجية الثوار. نظر إلى فيدل، فلم يلحظ على وجهه علامات سعادة. لقد احتقن وجهه غضباً، وضرب الحائط بقبضته، وأخذ يشتم. لم يكن لإرنستو أن رآه على هذه الحال، لكثرة ما كان يتحكم بأعصابه.

ـ آه، فيدل! ما الخبر. توجهت إليه الأسئلة من جميع الاتجاهات.

ـ لا داعي للفرح بهذه الانتفاضة. فهي لم تبدأ في الوقت المطلوب. كنا قد اتفقنا مع فرانكو بايس على أن نبدأ الانتفاضة مع وصول «غرانما» إلى كوبا. فلو تمّ ذلك، لسهلت مهمتنا، وتمّ إبعاد أنظار جيش باتيستا عنّا. لقد بدأ فرانك بايس في الوقت المناسب، أما نحن فقد تأخرنا، لأنه من المفروض أن تصل غرانما إلى كوبا اليوم.

كان من المفروض أن تبدأ في 30 تشرين الثاني عام 1956 ثورة عظيمة. لكن يبدو أننا أخطأنا الحساب، إذ لم نأخذ بعين الاعتبار أن هذه السفينة تحمل أكثر من طاقتها، ولن تستطيع الإبحار بالسرعة المطلوبة. لقد أخطأنا خطأ يعرّض مهمتنا للخطر.

بعد هذا التوضيح. لفّ الحزن أولئك الثوار، فرأى فيدل ضرورة أن يلقي خطاباً بهم، وأن يجيب عن استفساراتهم. لكن إرنستو لم يتمكن من حضور النقاشات حتى النهاية، إذ فاجأه الاستفراغ والدوار من جديد.

كان الليل دافئاً. اجتاحت المقاتلين رغبة محمومة لرؤية المنارة، لأنها تشير إلى اقتراب وصولهم. فعلى اليخت، قاربت مياه الشرب على الانتهاء، كذلك احتياط الوقود، فضلاً عن ضرورة التقنين في وجبات الطعام. لاحظ إرنستو الارهاق على بعض المقاتلين بسبب السفر الطويل في البحر، وبدت على وجوههم معاناتهم المريرة. لذلك، من الضروري أن ينالوا قسطاً

من الراحة قبل بدء الصراع مع باتيستا. ومن الممكن أن يختفوا بين أكواخ الفلاحين إذا انقسموا إلى مجموعات صغيرة، فهناك الطعام الجيد، وماء الشرب، وأرض صلبة تحت أقدامهم، وهذا ما ينقصهم بالفعل.

أخذت العاصفة تلاعب المركب بخفة، والأمواج تصل إلى أولئك الرجال الواقفين على ظهر السفينة يراقبون الضوء المنبثق من الأفق.

صعد روكي، وهو ملازم سابق في سلاح البحرية، إلى البرج باحثاً عن منارة الطريق. لكنه لم يتمكن من المحافظة على توازنه، فسقط في البحر.

ـ شخص ما خارج السفينة! وقع روكي في البحر.

كان البحث صعباً للغاية، بسبب قلّة الضوء نتيجة تلبد الغيوم.

ـ كيف يمكننا العثور عليه، والقمر لا يضيء ليلتنا.

أصرَّ إرنستو وفيدل على أن تحوم غرانما عدّة مرات حول المنطقة، رغم الأمواج العاصفة والظروف الصعبة. وأناروا الأضواء الكاشفة، لكن دون جدوى.

أخذ أحدهم يتمتم بصوت خفيف: لا داعي لإضاعة الوقت، والبحث من دون فائدة. لقد غرق روكي، ولا أمل بانقاذه.

وقال آخر:

ـ من الأفضل أن نتابع مسيرتنا إلى كوبا. ألا تريدون أن نصل إلى الشاطىء، ونخرج إلى البرّ في عتمة الليل؟

حاول إرنستو أن يرد على أولئك المقاتلين، لكن نوبة الربو عادت من جديد للتعريف بنفسها. رغم ذلك، عبر عن وجهة نظره: من غير المسموح ترك روكي بهذه السهولة.

حامت غرانما في المنطقة لمدة ساعة تقريباً، لكن دون جدوى. فتباحث فيدل مع إرنستو وآخرين: «إننا نسير إلى الأمام بسبب

الأمواج والهواء، ولا داعي للدوران حول النفس. فما علينا إلاّ أن نعود قليلاً إلى الوراء، إذا أردنا العثور على روكي». وهكذا قرر فيدل.

عندما بدأت غرانما بتغيير اتجاهها، أخذ إرنستو يفكر في هذا التصرّف من قبل فيدل. فهي ليست المرَّة الأولى التي يعرّض فيها فيدل الحملة كلها للخطر، بسبب عدم ترك رفيق في وضع صعب. فقد سبق له أن قام بذلك في المكسيك عندما كان إرنستو وفيدل ورفاق آخرون في المعتقل. يومها كان إرنستو أجنبياً، ويقيم بشكل غير قانوني، واتهم زوراً بجرائم خطيرة: إخفاء سلاح، تحضير تمرد، الحصول على نقود بشكل غير قانوني. لقد أفرج عن الجميع ما عدا إرنستو وكاليكستو غارسيا. فأصرّ فيدل على السعي للإفراج عنهما. عندها قال له إرنستو:

ـ عبثاً تضيع الوقت، وتحاول إطلاق سراحي. عليك الذهاب إلى كوبا لتحريرها. انسوا قضيتي، واهتموا بتنظيم الحملة الثورية على كوبا. إن قوى الأمن والجواسيس تلاحقكم في كل مكان. لا أريد الاشتراك في الثورة. لا تضيعوا المال من أجل تحريري. فأنا سأحاول الاتفاق معهم على السفر إلى بلد آخر.

لكن فيدل أوقف إرنستو عن الكلام بلهجة حادة لا تقبل الرفض أو التردد، قائلاً:

ـ لن أدعكما هنا!

وها هو الآن يرفض ترك روكي وحده في وضع صعب، رغم أن الحملة كلها ستتعرض للخطر بسبب البحث الطويل.

فجأة، صرخ أحدهم من غرفة القبطان.

ـ إنني أسمع صوتاً! إنه هو! إننا نسير باتجاهه.

ساد صمت مطبق على ظهر غرانما. أغلق بعض الثوار أعينهم

من السعادة. ثم انفجرت صرخة فرح، وبدأوا يضمّون بعضهم بعضاً تعبيراً عن الفرح.

أنزلوا قارب النجاة. صعد روكي، وعاد إلى ظهر السفينة.

ـ كدت أهلك! قال روكي مبتسماً وهو في حالة إجهاد، ثم هجم عليه الثوار يقبلونه.

ـ والآن، قدماً إلى كوبا! علينا أن ننهي هذه الحياة في البحر بسرعة.

ـ صحيح، إلى الأمام، إلى كوبا.

ـ إننا قادمون يا باتيستا.

جاء اليوم الذي شارفت فيه غرانما على شاطىء لوس ـ كلدادوس.

ـ صحيح، لم نصل إلى المكان المحدد بالضبط. لكن المهم أننا وصلنا إلى شواطئ كوبا.

قال أحدهم.

سمع إرنستو صرخات تحذيرية. لقد مرَّ بالقرب منهم قارب حرس الشواطىء، وبعده سفينة للمسافرين محملة بأكياس الرمل.

لا شكّ أنهم سيخبرون السلطات. علينا مغادرة غرانما إلى الشاطىء بسرعة. لي نيه! عليك بالاستطلاع المكان.

انطلقت المجموعة الأولى في قارب من الألمينيوم. لكن، نسي أحدهم إغلاق الثقب السفلي، فغرق القارب بسرعة، وانتهى الأمر بالطاقم أن وجدوا أنفسهم في الماء. فما كان عليهم إلاّ أن يصلوا إلى الشاطىء فرداً فرداً. فشكلوا سلسلة من الرجال بواسطة الحبال، وهم يرفعون أسلحتهم فوق رؤوسهم. قفز إرنستو إلى الماء، وكانت ضربات قلبه سريعة، وهو في غاية الانهاك. بعد وصولهم إلى الشاطىء، وطأت أقدامه الأرض الصلبة. هنا شعر إرنستو بشعور غريب. نعم، إنها لحظة تاريخية. لقد وصل الثوار إلى كوبا.

لم يكن للمقاتلين أن يشبهوا الثوار بشيء. فالقليل منهم من حلق ذقنه منذ عدة أيام، أو حتى منذ عدة أسابيع، والملابس رثة مهترئة. بعضهم كان يوقف دموعه بصعوبة. وآخرون لم يتمكنوا من فتح أعينهم من التعب. ألقى إرنستو نظرة على سلاي فوجده يتنفس بصعوبة بالغة، لكنه لاحظ على وجهه ملامح البهجة رغم كل شيء.

كانت الطريق ملأى بالمستنقعات، ومرهقة للمقاتلين. كانت أقدامهم تغرز في الأرض عند كل خطوة يخطونها، وبعضهم فقد حذاءه. كانوا لا يستطيعون حمل شيء سوى الضروريات الملحة، فهذه المستنقعات أذاقتهم عذاباً لم يخطر على بالهم لحظة واحدة. ها هي جموع البعوض تهاجم هؤلاء المعذبين وتحوِّل حياتهم إلى جحيم. لا، إلى الأمام! إلى الأمام! علينا أن نبتعد عن الشاطىء، ونخرج من هذا المستنقع! كانت هذه الفكرة تلازم كلاً منهم، وتدفعه إلى الأمام.

بقوا عدة ساعات يناطحون هذه الأرض المائجة، أدركوا فيها أهمية امتلاك حذاء جيد لهذا الصراع. فجأة، ظهرت طائرات في الجو، توارى المقاتلون تحت ظل بعض الشجيرات. لكن الطائرات لم تلاحظهم.

تابعوا المسير، وبعضهم شق عليه الانتقال ولو خطوة واحدة! لقد تورمت أرجلهم، وسقط بعضهم على الأرض مغمياً عليه. أما إرنستو وفاوستينو فكانا يعملان المستحيل من أجل المساعدة.

تقدموا إلى الأمام. ساروا كالأشباح الآلية، مبتعدين عن بعضهم. وبعد عدة ساعات، كانت بالنسبة لهم الأبد نفسه، وصلوا إلى قرية صغيرة. تولى فيدل الحديث مع الفلاحين، فكان لهم تحضير الطعام. أخذوا يتعانقون رغم التعب الذي كان يرهقهم. وبعد لحظات، عبقت رائحة الطعام في كل مكان. فقام

إرنستو وفاوستينو بالكشف على رفاقهما، وتقديم المساعدة الممكنة لمن أدميت قدماه من المسير الشاق.

ارتاح إرنستو لرائحة الطعام، لأنه سيزود المقاتلين بقوة جديدة. فلكم تحملوا من العذاب والتعب! سبعة أيام على ظهر غرانما في البحر الكاريبي، وما فيها من نقص في المأكولات، والخوف، والدوار. ثم جاءهم الممرّ الجهنّمي في هذه المستنقعات ونقص عتادهم، فلم يبقَ إلاّ القليل من البنادق والذخيرة المبلّلة بالماء.

تجمع المقاتلون حول الطعام. وكان لدى بعضهم شيء من تبغ ناشف. أما فيدل فقام يشرح للفلاحين جوهر الاصلاح الزراعي.

وبينما كان إرنستو يربط آخر ضمّادة لأحد الجرحى، ويهمّ بالذهاب لتناول الطعام، سمع صوتاً يصرخ:

ـ اختبئوا! إنها الطائرات!

حامت طائرات باتيستا فوق رؤوسهم بشكل مفاجىء، وقصفت المكان الذي كانوا فيه. قفز إرنستو نحو صندوق الأدوية، لكن قذيفة سقطت على بعد عشرين متراً منه، ولحسن الحظ لم تنفجر. فحاول أن يذهب نحو الصندوق زحفاً، كيف لا وهو طبيب، إذ ماذا يعني طبيب من دون أدوية؟ وهنا عادت إليه نوبة الربو اللعينة. لكنه، رغم كل شيء، تابع الركض.

شارف المسير من الشاطىء إلى الغابات على اليوم الثالث. ولم يعد بإمكان أي منهم الاستمرار؛ لأن النار تشتعل في قدميه، فكل خطوة يخطوها كانت تعني له ناراً جهنمية. وكان بعضهم يقطع قصب السكر ليخفف به جوعه المتوحش، ويرمي بالفضلات إلى الطريق. إنهم مقاتلون تنقصهم الخبرة، لقد خلقوا فرصة أمام جيش باتيستا لاكتشاف أثرهم.

ازدادت طلبات المقاتلين لأخذ قسط من الراحة، وبدل إرنستو بندقيته الثقيلة بأخرى خفيفة.

توقف المقاتلون في غابة القصب في مكان قليل الشجر. وغطّوا في نوم عميق. أما إرنستو فأخذ يضمّد رجلي أومبرتو لوموته. نظر إلى وجهه المنهك، ثم حاول تهدئته. لكنه لم يتمكن من شحنه بالشجاعة. إذ كان عليه أن يحمل حذاءه بيده.

بعد ذلك، قرر إرنستو أن يأخذ قسطاً من الراحة، فاستلقى على الأرض متكئاً إلى جذع شجرة. جاء إليه مونتانه وهو في غاية الجوع، فاقتسما ما في حوزتهما من طعام: نصف قطعة من المرتديلا، ورأسين من البصل. أخذ إرنستو يمضغ ما في فمه ببطء، ويفكِّر بشيء يلهيه عن هذا الوضع. كان عليه أن يفكِّر بشيء ما، محرض أو معبىء.

ـ حدثني عن أطفالك يا مونتانه.

ـ نعم، تعال نتحدث عن أطفالنا، فهذا شيء نافع.

في هذه اللحظات دوّى صوت رصاص. نظر كل منهما في وجه الآخر نظرة شك. فجأة، انهمر الرصاص بغزارة على الثوار.

حاول فيدل أن يجمع الرجال في أقرب منطقة كثيفة. لكن، كان العدو مفاجئاً. ألقى أحدهم بصندوق الذخيرة وهمّ بالفرار.

ـ قد! صرخ به إرنستو. خذ الصندوق.

ـ ليس الآن وقت الصندوق! صاح آخر، وعلى وجهه تبدو ملامح رعب. فجأة وقع وسط نيران جنود باتيستا.

حاول إرنستو جرّ الصندوق، لكنه لم يقوَ على ذلك، فوقف على ركبتيه، لكن، دون جدوى. كيس الأدوية في يده، وصندوق الرصاص، إنه حمل ثقيل فوق ذلك، عليه أن يزحف إلى تلك المنطقة المغطاة بقصب السكر. أما فاوستينو، فانبطح أرضاً، وأخذ يطلق النار كي يغطي انسحابهما!

ألقى إرنستو كيس الأدوية جانباً، ثم تناول صندوق الذخيرة

وأخذ يجري، في هذه الأثناء لمعت في رأسه فكرة: إنه قرار سليم: فهو الآن مقاتل، وليس طبيباً، لقد اختار صندوق الذخيرة.

أصيب إرنستو قبل أن يصل إليه فاوستينو، وشعر بضربة في صدره، وألماً في فمه. ووجد إلى جانبه أرنيتوس وهو ينزف دماً من أنفه وفمه.

ـ قتلني هؤلاء الخنازير، قال وهو يصرخ، ويطلق ما في سلاحه من طلقات. بقي إرنستو يزحف بصعوبة حتى وصل إليه فاوستينو الذي كان لا يزال يطلق النار وهو يغطي انسحاب رفاقه.

ـ فاوستينو! لقد أصبت، أنا جريح.

لم يعره فاوستينو اهتماماً، لأنه كان منهمكاً بالتسديد على أحد الباتيستيين، وأطلق عليه صلية من الرصاص.

ـ الأوغاد! لقد أصابوني! قال إرنستو.

أما فاوستينو فلم يتوقف عن اطلاق النار، فألح عليه إرنستو:

ـ اهدأ. لا داعي للخوف. هيا أطلق النار. اقتلهم.

شعر إرنستو وكأن الموت أدركه. لكن شيئاً ما دفعه إلى اغلاق عينيه، وبدأ بإطلاق النار إلى الجهة التي كان يطلق عليها فاوستينو.

وهو على الأرض، شعر بدمه الدافىء. فأدرك أن النهاية دنت، فهو لن يرى بعد الآن إلدا والدنيا. لم يكتب له أن يعيش نصر الثورة. إنها النهاية.

ومرّ في ذاكرته شريط من الذكريات... مرّ بتسارع عجيب، وتوقف عن قصّة جاك لندن: الإنسان الذي حكم عليه بالموت. وهو من أصقاع آلاسكا المتجمدة. الذي قرر استقبال الموت بهامة عالية... وعندما كان إرنستو يتكىء إلى جذع شجرة، سمع صوت أحد المقاتلين ينادي: يجب الاستسلام، الاستسلام!

ـ لن يجرؤ أحد على الاستسلام، مفهوم؟ لا أحد! دوَّت

صرخة كاميليو من بين قصب السكر، الذي لم يضعفها، وملأت المكان بالعزيمة والحماس.

أخذت الطائرات، هذه المرة، بتمشيط المنطقة بنار الرشاشات الثقيلة. قام الميدا بتشكيل مجموعة من المقاتلين، وتوجه نحو إرنستو قبل الانسحاب إلى داخل الغابة.

ـ هيا إلى الغابة! سنكون في مأمن هناك، ونتمكن من الدفاع جيداً!

ـ إنني جريح يا الميدا، وأقارب على النهاية، فلن أتمكن من الوصول معكم.

ـ صه! ستصل، وعليك أن تصمم على ذلك! هيا بنا!

أعاد صوت الميدا، الذي ينضح بالحماس، الحياة إلى إرنستو. وأحسّ أنه سيبقى حياً، رغم إصابته في الرقبة. لكن، سيدركه الموت إذا ما وقع في أيدي جنود باتيستا. لذلك، يجب الخروج من هذه المنطقة فعلاً. ساعده الميدا على النهوض، وأخذ يجمع قواه ويخطو خطوة خطوة.

ـ لم يبقَ إلاّ القليل! لقد وصلنا، ها هي الغابة!

انشغل الميدا وروميرو بجمع السرطانات الموجودة بكثافة.

ـ لا يمكن غليها، أو شيُّها. قال الميدا. لا يمكننا إشعال النار. لكنه ليس بذي أهمية، يمكن أكلها هكذا.

شعر إرنستو بمعدته تتقلب، وأحس بثقب كبير فيها. أما الميدا فحاول التخفيف عن الرفاق، فأغمض عينه وقال:

ـ بعد انتصار الثورة سنفتح مطعماً خاصاً، ونبيع فيه السرطانات النيئة فقط.

تغلب إرنستو على رغبته في الاستفراغ، ثم تناول سرطاناً، وبدأ بأكله، مغمضاً عينيه. وبعد أن انتهى، تناول الثاني مباشرة.

لقد فقدوا في هذه المعركة عدداً كبيراً من المقاتلين، فمنهم من

استشهد، ومنهم من وقع في الأسر. ولم يبقَ إلاّ خمسة رفاق، قرّروا القتال والصمود حتى آخر رجل منهم.

بعد أن أكلوا السرطانات، شعروا بحاجة إلى الشرب. لكن، لم يكن بحوزتهم ما يكفي لسد رمق رجل واحد. هنا، تذكر إرنستو أنه قرأ في يوم ما دراسة علمية حول هذا الموضوع.

ـ إن لم أكن مخطئاً، كتب في تلك الدراسة أنه من الممكن إضافة ثلث من ماء البحر إلى ثلثين من ماء الشرب، ولن يؤثر ذلك على نوعية ماء الشرب. بذلك، نستطيع زيادة كمية الماء الموجودة في حوزتنا.

ـ إنني لم أجنّ بعد. قال الميدا بامتعاض. أتريد إفساد ما تبقى لدينا من ماء للشرب؟

ـ لكن، يمكننا زيادة الكمية، ونؤمن الشرب للجميع، إذا لم نكتف ليوم كامل.

لقي اقتراح إرنستو استحساناً عند الآخرين، ما عدا تشاو الذي أخذ ينظر إليه بتحفظ. ولم يكن هناك من مخرج، خصوصاً أنه الطبيب الوحيد، ولا أحد يفهم بذلك أكثر منه.

كان رينالدو أول المجربين للخليط، وبعد أن شرب قليلاً، احمرّ وجهه خجلاً وحنقاً:

ـ يا له من ماء قذر، عديم النفع، مالح جداً! قال رينالدو ذلك وهو يتلعثم بكلامه.

حلّ الليل، وكان القمر بدراً يسطع في سماء غابت عنها النجوم، سار الميدا وراء رأس المجموعة إرنستو، وأثناء سيرهم شاهدوا كوخاً على شاطىء البحر.

ـ يبدو أنه كوخ لأحد الصيادين، بناه كي يحمي نفسه من الرياح البحرية. قال الميدا بصوت خفيف.

ـ يوجد في داخله نائمون. ثلاثة أو أربعة، إن لم تخدعني عيناي. وأرى أسلحة.

ـ هيا نستطلعه عن قرب.

أعدوا سلاحهم للانطلاق، ووصل إرنستو والميدا إلى محاذاة الكوخ بسرعة.

ـ أرى كل شيء في الداخل، هناك سلاح بجانب الحائط، إنهم جنود باتيستا، يجب الابتعاد بسرعة.

ـ بالعكس، نأسرهم. فنحن بحاجة إلى أسلحتهم ومعدَّاتهم، إضافة إلى أننا نستفيد من أية معلومات يقدمونها عن انسحاب الرفاق.

ـ كيف سنقوم بأسرهم؟

ـ المسألة سهلة. أدخل إليهم، وأطلب منهم الاستسلام.

ما إن أنهى الميدا حديثه حتى قفز، وخلفه إرنستو، ناسياً الجوع والعطش اللذين كانا على أشدهما، ولم يعد يشعر بالآلام المنبعثة من جراحه. وهذه المرة كانت المبادرة في أيديهم. فهم يهاجمون الجنود، وليس العكس. وفي هذه المرة سيهزم العدو.

فجأة، انفجر الميدا ضاحكاً.

ـ كاميليو! بانتشو! بابلو!

كان الثلاثة من رفاقهم، وهكذا أصبحت المجموعة ثمانية. قام رجال كاميليو باستضافة الرفاق، وقدموا لهم بعضاً من قصب السكر.

ـ إنها حلوة المذاق، ولا تخفف من الجوع إلاّ قليلاً.

ـ فعلاً. قال كاميليو ضاحكاً. لكن لماذا لا تأكلون السرطان؟

ـ لقد فعلنا ذلك. لكن احتجنا إلى كثير من ماء الشرب.

ـ الماء كثير من حولنا.

ـ نعم، لكنه ماء بحر شديد الملوحة.

ـ لا. إنني أقصد ماء الحفر القريبة من الشاطىء.

بعد عدة أيام عثر الرجال الثمانية على فيدل كاسترو ومعه ثلاثة عشر رجلاً من مقاتلي «غرانما»، عراة وعزل من السلاح تقريباً. أما بقية المقاتلين الذين جاؤوا في الحملة من المكسيك فقد وقعوا في الأسر، أو لاقوا حتفهم. رغم ذلك، بقي فيدل مقتنعاً بضرورة الإسراع في تشكيل الجيش الثوري. وأنه بدأ بإجراء اتصالات مع الفلاحين في المناطق المحيطة.

ـ لقد وقعنا في أخطاء جمّة، ودفعنا ثمناً باهظاً. لكن، فرقة الانتفاضة لا تزال موجودة، وستستمر في القتال، والانتصار ممكن. إننا سنبني أنفسنا هنا، في هذه المنطقة. علينا بإيجاد السلاح والعتاد الكافيين، والبدء في تدريب المتطوعين الجدد.

تنهّد إرنستو وهو يفكر بفيدل كاسترو. فهو صديق قريب له، ورفيق درب. لقد آمن بقدرته ومواهبه. إنه قادر على إقناع الفلاحين. وبقيادة هكذا شخص سيزداد عدد رجال الانتفاضة بتسارع كبير.

بدأ استطلاع الثكنة منذ الصباح الباكر، بعد أن تسلّلوا مساءً عبر نهر لا ـ بلدتا، الذي لم تكن مياهه مرتفعة، مما سهل عملية التسلل.

وضع المقاتلون ثلاثاً وعشرين بندقية ورشاشاً صالحاً للاستعمال.

ـ الذخيرة لدينا قليلة. قال تشي بصوت منخفض. لكن، في كل الأحوال يجب علينا احتلال الثكنة. فإذا أطلقنا كل ما بحوزتنا من رصاص سنكون عزلاً بكل معنى الكلمة.

أومأ كاميليو برأسه. كانت لديه بندقية نصف أتوماتيكية، وكان مثلها خمس بنادق فقط، لكن الرصاص لم يكن كافياً إلاّ لواحدة.

كان ضوء القمر ينعكس على سطح الثكنة القصديري.

ـ هناك: يوجد حوال خمسة عشر جندياً، وفي أقصى الاحتمالات عشرين جندياً أليس كذلك؟ لكنهم يملكون قوّة نارية كبيرة. ناهيك عن موقعهم المحصَّن. المهمة الأولى هي إدخال الرعب إلى نفوسهم منذ اللحظة الأولى. لذلك، يجب استخدام عنصر المفاجأة. لديّ قنبلة هجومية تساعدنا على ذلك، لكنني أخشى أن تكون رطبة، وفقدت مفعولها! قال غرانما كاسترو ذلك بصوت خفيف.

أصدر فيدل أمره بعدم إطلاق النار، إلاّ بعد إشارة منه، حيث ستفتح النيران في الوقت المناسب. لذلك، أخذ رشاشاً يدوياً من نوع «طومسن».

فجأة، عكر صفو المكان، وحديثهم الهامس، صوت شخص ما يغني لقد مرّ أمام الثوار على مسافة قريبة، إنه تشيكوا سوريو الذي سكر حتى الثمالة. شدّ إرنستو على بندقيته، فقد سمع الكثير من هذا الرجل. كان من أقسى رجال النظام في المنطقة. فكم من الأرواح البشرية زهقت تحت إشرافه! وكم من الدموع! وكم من الدماء! كان الفلاحون يتحدثون عنه وكأنه الغول نفسه. لقد حافظ على ممتلكات عائلة لافيتي بالارهاب والعنف. كان سهلاً على إرنستو أن يقضي على عديم الضمير، وشارب الدماء تشيكو. لكن، سيتنبه لذلك مَن في الثكنة، وبالتالي تتعرض العملية برمتها للفشل، فضلاً عن أمر فيدل بعدم إطلاق النار دون إشارة منه.

أوعز فيدل إلى سانتشيس مشيراً عليه:

ـ أوقفه واسأله عن كلمة السر!

قفز سانتشيس إلى الطريق، ووجه كلامه إلى تشيكو:

ـ الحرس القروي. هات كلمة السر!

لقد أثيرت دهشة الجميع عندما أجاب تشيكو مصدقاً:

ـ البعوض.

هنا جاء دور فيدل. لقد أعجب إرنستو بفيدل وهو يعرض قدراته في التمثيل.

ـ ما اسمك؟

ـ تشيكو اسوريو.

ـ اسمع يا تشيكو. أنا عقيد في جيش الرئيس باتيستا المظفر. قدمت إلى هنا بهدف الاستطلاع والاستيضاح: لماذا لم تقضوا على المخربين بعد؟ أليس ذلك عار على بلدنا؟ أتنتظر حتى يحمل الفلاحون السلاح، ويعلنون العصيان بوقاحة؟

أومأ تشيكو موافقاً:

ـ فعلاً. هم كالخنازير في الماء الصافي، والجنود للأكل والنوم. لقد حان الوقت لإحلال النظام.

فجأة، بدا الخوف على تشيكو بالرغم من السكر. وأغلب الظن أنه تعجّب من هذا العقيد الملتحي، وصاحب المنظر الغريب، كأنه مشرد في الصحراء.

أخذ فيدل بتهدئة روعه:

ـ الجنود هنا كسالى، ولا يقومون بأي عمل. مما اضطرني للعمل ليل نهار، وازدادت حالتي سوءاً يوماً بعد يوم. وازدادت وقاحة الفلاحين، والجنود لا فائدة منهم. فقد أخذ الفلاحون بالتطاول على الجنود الذين لا يردّون عليهم، لذلك اضطررت أن أقوم بالعمل وحدي. وهنا بالضبط أعطيت، منذ عدة أيام، أحد أصحاب الألسنة الطويلة درساً لن ينساه، عندما تطاول على الجيش بوقاحة.

ـ من يدعى هذا؟ سأل فيدل وهو يستمر بلعبته.

ـ راميرس. أجاب تشيكو.

ـ سألقنه درساً في الأدب والأخلاق. أين يسكن الآن؟

بعد أن وصف له المكان، وأكد له أن عائلته تحمل الآراء نفسها، سأله فيدل:

ـ هل يوجد الكثير ممن يتعاطفون مع هؤلاء المخربين؟

أجاب تشيكو مسروراً، وقدم أسماء وعناوين كل من يتعاطف مع الثوار. وتمكن فيدل من أخذ ما لا يقل عن عشرين اسماً وعنواناً. واتضح بذلك، التصور الكامل عن المنطقة. لقد عرف الثوار أسماء المتعاطفين معهم وعناوينهم.

ثم استرسل تشيكو في الحديث، وأدلى بمعلومات كاملة عن بعض المتعاملين مع النظام. بذلك، عرف الثوار مع من يمكن الاتصال ومع مَن لا يمكن ذلك.

توقّع إرنستو أن نهاية تشيكو قد حلّت. لكن فيدل قرّر استكمال اللعبة حتى النهاية.

ـ ماذا ستفعل بفيدل كاسترو إذا ما ساقه القدر إليك؟

لوح تشيكو بقبضته بحيوية:

ـ لسلخته، وأجبرته على أكل لحم يديه، وسلخت عنه جلده وهو حي.

ابتسم فيدل وأومأ:

ـ صحيح. لم أتوقع غير ذلك.

دخل تشيكو في اللعبة.

ـ منذ فترة قصيرة، قتلنا عدداً من أبناء العاهرة هؤلاء. وأنا شخصياً قتلت اثنين منهم.

اقترب كاميليو من تشي وهمس:

ـ هذا الخنزير يحكم على نفسه بالموت!

لكن فيدل لم يسرع في تنفيذ الحكم، ربما يحتاجونه بعد.

ـ اسمع يا تشيكو، هل أنت على استعداد لمساعدتي في استطلاع وضع الثكنة، وجاهزية الجنود فيها؟

ـ طبعاً. هذا شرف لي.

ـ حسناً، ستمر من أمام الحرس بحذر، حتى لا يلاحظ أحداً منا، ونتمكن من إلقاء نظرة على هؤلاء الجنود، ونرى حينها كيف يقومون بواجبهم. لأن جماعة كاسترو في النهاية بإمكانها الهجوم على الثكنة بمن فيها.

قال تشيكو ضاحكاً:

ـ لا أظن أن هذا التيس الأجرب يملك من الشجاعة ما يكفي للقيام بهجوم على الثكنة.

ـ يجب الظهور بمظهر طبيعي. سنربط يديك كأنك أسير لدينا، مما يخيف الجنود.

أُعجب تشيكو بالفكرة. وما إن بدأوا بربطه حتى دخل الشك قلب إرنستو: «صحيح أن كل شيء يسير على ما يرام، لكن ما العمل إذا ما اكتشف أمرنا؟ ربما سيقودنا إلى الموت!».

ـ من الضروري أن يتأكد الرفيق لويس كرسبو من صحة كلام تشيكو قبل تنفيذ العملية. إذ لا يمكن الاعتماد على كلام مصاص دماء ثمل.

ـ في الثكنة مركز حراسة واحد، انظروا كم هم كسالى. الحارس يجلس في بيت مشرف، واسمه أنوريو. إنه صديق قديم لي، فكم من الرؤوس قطعنا معاً بـ...

ـ أين هو بيته؟

ـ هناك، خلف الثكنة.

ـ أين هي مراكز الحراسة الأخرى؟

ـ لا توجد مراكز أخرى. المنطقة هنا تنعم بالهدوء. وكاسترو هذا لا يملك من الجرأة حتى يهاجم الثكنة مع جياعه.

ذهب لويس كرسبو للاستطلاع. والثوار ينتظرون على أحرّ من الجمر. شعر تشي بحماس شديد عند الرفاق لبدء المعركة. كانوا

يريدون إثبات قدرتهم على تحطيم جيش باتيستا. كما أنهم كانوا يريدن التأكيد من وراء عمليتهم هذه أنهم لا يزالون على قيد الحياة، وأنهم يقومون بتنفيذ العمليات بنشاط. خصوصاً أن الإذاعة الرسمية أذاعت خبر الإجهاز على مجموعة كاسترو، ودارت شائعات عن مقتل كاسترو.

عاد لويس كرسبو من الاستطلاع:

ـ تشيكو لم يكذب، رأيت بين بيتين صغيرين شعاعاً ينبعث من سيجار مشتعل، ولا توجد مراكز حراسة غيره.

بدأ فيدل بتوزيع المقاتلين، وإعطائهم خطة الهجوم:

ـ كاميليو، كاليكستر، فوليتو دياس وبيتس. بما أنه لديكم بنادق نصف أوتوماتيكية، عليكم محاصرة البيت المحاط بالنخيل. راؤول والميدا يهاجمان من اليسار. سانتشيس، ولويس كرسبو، وغارسيا، وفخاردو، وتشي تبقون معي في الوسط. فلنحاول إجبارهم على الاستسلام بسرعة، حتى نضمن أقل إنفاق في الذخيرة. إلى الأمام أيها الرفاق.

تمركز المقاتلون في مواقعهم على بُعد أربعين متراً من الثكنة. وفي الثالثة إلاّ ثلثاً بدأ فيدل المعركة بإطلاق زخّتين من الرصاص. وفوراً، لعلعت كافة البنادق قاذفة بأحشائها من جحيم على ثكنة الأعداء.

دعا تشي جنود الثكنة للاستسلام، لكن الإجابة كانت نيراناً كثيفة ـ كما تريدون ـ صرخ تشي، وألقى نظرة سريعة على لويس كرسبو الذي كان قد أعدّ قنابله البرازيلية للتفجير. وقام بتجهيز قنابله أيضاً.

لقد فهما على بعضهما دون كلمات، وقذفا بقنابلهما. لكن خيبة الأمل كانت كبيرة، فالقنابل لم تنفجر. عندها، قام راؤول كاسترو بإلقاء علبة من الديناميت، لكنها من دون فائدة.

ـ يجب التقدم إلى البيت، وإحراقه بمن فيه! صرخ تشي بأعلى صوته. وبدأ يزحف. لكن سبقه سانتشيس، وقام المناضلون بتغطية نارية كثيفة له. لكنه لم يتمكن من تنفيذ مهمته بإحراق أي من البيوت. زحف بعده كاميليو سينغوغوس، فوصل إلى بيوت الثكنة، لكنه لم يتمكن من إحراقها. بعده، بدأ تشي ولويس كرسبو بالزحف.

ـ سنقوم نحن بالمهمة يا تشي! قال لويس كرسبو ببهجة حذرة. توجد في المخزن أكوام من قشر الجوز، وهو يشتعل بسرعة كالقش.

بعد دقائق، هبّت ألسنة اللهب. وبدأ الجنود بالفرار. أحدهم قفز هارباً باتجاه لويس كرسبو، الذي تمكن من انتزاع سلاحه مباشرة، وبدأ بإطلاق النار على البيت الذي كان معظم الباتيستيين مختبئين فيه.

سرعان ما بدأت تسمع صرخات الاستسلام: «نستسلم». لكن أحدهم حاول الهرب، فما كان من كاميليو إلاّ أن أفرغ كل حقده رصاصاً على كلب باتيستا الهارب. وبدأ الجنود بالاستسلام واحداً تلو الآخر. وانتهت المعركة.

ـ لقد انتصرنا! انتصرنا! المجد للثورة!

ـ لا توجد أية إصابة بيننا! قال تشي مطمئناً، لأن واجبه مراقبة الجرحى وعلاجهم، إن وجدوا. لكنه عالج خمسة جرحى من الأسرى. وفقد الباتستيون قتيلين.

قام فيدل بالاطمئنان على الرفاق، والتأكد من وجود الجميع، وإحصاء الغنائم. أما الرفاق فكانوا يطفئون الثكنة المشتعلة.

توجد الآن في حوزتنا آلاف الطلقات، والوقود، والمواد الغذائية والملابس.

ـ لقد حصلت على غنائم أيضاً! قال تشي ضاحكاً. وعرض خوذة عريف من جيش باتيستا.

اقترب فيدل من تشي، وألقى عليه نظرة وهو يساعد الجرحى.

ـ اسمع يا تشي. سندع الجنود والأسرى مع الجرحى هنا. فليعتنوا بهم حتى تأتيهم مساعدة. ونبقي لهم ما يلزمهم من الأدوية.

ـ آه! لا يوجد لدينا كثير من الدواء. ونحن بأشد الحاجة إليه، ولا نملك احتياطاً من الأدوية يفيض عنا.

ـ لا يهم. إن ما نقوم به من أجلهم سيترك أثراً كبيراً في نفوسهم. إننا مختلفون جذرياً عن باتيستا ورجاله. نحن لا نقتل الجرحى من أعدائنا. لا بل نقدم لهم المساعدة.

ـ هل حصلنا على غنائم كثيرة؟

ـ إننا نملك الآن من السلاح ما يفوق عددنا. وأهم ما في الغنائم ثماني بنادق «سبرنج فيلد»، ورشاش طومسن.

ـ هكذا يجب أن يكون. سيكون العدو مزوِّدنا الأول بالأسلحة والعتاد.

ـ بالضبط، سيقوم العدو بذلك رغماً عن أنفه، وليس بإرادته، هل تحتاج إلى مساعدة؟

ـ نعم، ناولني لفافة الشاش، إنها في الصندوق.

قاطعهم صوت مملوء بالرعب. سألهم جندي جريح:

ـ هل ستقتلوننا؟

ـ لا، إننا نريد الإطاحة بديكتاتورية باتيستا. نحن لسنا قتلة، إننا مناضلون من أجل الحرية، ولا نؤذي الأسرى.

لقد أثبتت التجربة صحة رأي فيدل. فقد انضم أحد هؤلاء الجنود، الذين تركوا أحراراً، إلى مجموعات فيدل كاسترو.

أثناء مسيرتهم التالية تخلف إرنستو مع بعض الرفاق. وعندما

كانوا يحاولون اللحاق بهم، وبينما كان إرنستو يقفز عبر الهشيم، فجأة، سمع رصاصة تدوِّي، وتستقر في جذع شجرة تبعد عنه عدة أمتار. انبطع على الأرض بسرعة، وأخذ يحدق بالهشيم من حوله.

كان شيء ما يتحرك، ويزحف. لقد تعرف إرنستو على العدو، إنه كاميليو. ثم أطلقت رصاصة أخرى، عندها ربط إرنستو شريطاً أبيض في فوهة البندقية، ورفعها فوق رأسه. قفز كاميليو من موقعه سعيداً، وممسكاً بالبندقية بحال الاستعداد لإطلاق النار. لقد اصفرّ وجهه عندما رأى صديقه القديم.

ـ لقد رأيت خوذتك فقط يا تشي، فظننت أنك من جنود باتيستا.

خلع إرنستو خوذته وأخذ يتفحصها قائلاً:

ـ بسبب هذه اللعينة كنت أقف على حافة الموت. الحمد لله أنك أخطأت الهدف!

علّق كاميليو على ذلك:

ـ هم، منذ مدة طويلة لم أخطىء مثل هذا الخطأ.

* * *

كان على أحد الثوار أن يصل إلى المدينة، لإجراء اتصال بـ «حركة 26 تموز»، وللحصول على احتياط من المواد الغذائية والطبية.

أستغل إرنستو هذه الفرصة، وكتب رسالة لوالديه. صحيح أن الرسالة في المدينة تسقط في الصندوق، وترسل بسهولة. لكن، لا بد من حساب للمفاجأة، إذ من الممكن أن يقع المراسل بين أيدي رجال الحكومة، أو أن تكون منطقة الجبهة مراقبة، ولا يمكن إعطاء العدو أية إشارة.

اجتاحته رغبة عميقة في الكتابة عن أشياء كثيرة: هل يكتب عن

تجربته منذ إصابته برصاص الباتيستيين مثلاً، لكنه سيشغل بال والدته. أم أنه يحدّثهم عن الهزيمة في المعركة الأولى المفاجئة وغير المتكافئة. لكنها إذا وقعت في يد العدو فسيعرف عنهم الكثير. أو أنه يحدثهم عن الأرجل المدماة ونوبات الربو. لا. من الممكن أن يكتب عن صلابة الرفاق وايمانهم بالنصر: «في البداية انتابني اعتقاد أنني لن أنجح، وأن الفشل يحيط بي. لكن مديري في المؤسسة استطاع أن يهدّىء الوضع، وتمكّن من تغيير الظروف نحو الأفضل، حتى بتّ أعتقد أن هناك إمكانية للذهاب في إجازة لعدة أشهر. هذا طبعاً، في حال استقرار الأوضاع. ويوماً بعد يوم أتمكن من العمل أكثر فأكثر بمساعدة مديري. وأطمح للوصول إلى القمة، والمدير ليس رجلاً سيئاً». ووضع توقيعه باسم تشي.

لم يكن إرنستو يعرف مصدر هذا الاسم. لكن الرفاق تعودوا على عدم مناداته باسمه الحقيقي إرنستو، وأخذوا ينادونه باسمه الجديد المحبب إليه ـ تشي. كان يعتقد أن الكلمة مأخوذة عن الهنود، ففي فنزويلا وكولومبيا يدعو الأرجنتينيين بهذا الاسم ـ تشي ـ وهي تسمية منتشرة بشكل واسع في تلك البلاد، حتى إرنستو نفسه كان يستخدمها دون أن يعرف أصلها الحقيقي.

كما يذكر إرنستو نفسه، كان ينادي بعدة ألقاب مختلفة فوالداه كانا يلقبانه في طفولته بـ «تي تي»، وهو اسم الدلع. أما زملاؤه في المدرسة فكانوا يسمونه «خنزيراً» لكثرة ما كان يأكل، وبعدها سمّوه بالأصلع. لكن تسمية «تشي» كانت أحب الأسماء إليه، حتى أنه أصبح يفضل هذا الاسم على اسمه الحقيقي، ويوقّع مخطوطاته به.

كان ينتابه شعور بقرب نهايته في تلك الفترة، فلم يكن بحوزته أي علاج للربو اللعين. وكانت نوبات الربو تصارعه باستمرار.

وسعاله يسبب اكتشاف أمر الثوار في منطقة تعجّ بتشكيلات جيوش الحكومة. رغم ذلك، كان عاجزاً عن ضبطه، وكاد في إحدى المرات أن يهوي أرضاً بسبب انقباض صدره، وتدفق الدم على رأسه. وها هو فصل الشتاء قد حل على سييرا، والرطوبة تقتله. ففي كل ليلة كان يشعر بالآلام وهي تنخره حتى العظم. والرفاق قرروا النوم في أكواخ الفلاحين، مخافة اكتشاف أمرهم في الغابات بسبب وضعه المتأزم.

هذا الوضع لم يعجب تشي أبداً، رغم تعاطف معظم الفلاحين مع الثوار. فرجال باتيستا كثيراً ما كانوا يقومون بحملات دهم البيوت ونهبها. والمسير كان شاقاً وصعباً. فكل خطوة كان يخطوها كانت تعني له الانهاك الجهنّمي، وتعني له نوبة من الربو.

قرر المقاتلون التوقف للراحة، وتجميع القوى، بالقرب من كوخ صغير لأحد الفلاحين. أخذ تشي يقرأ بعض أشعار بابلو نيرودا كي ينسى وضعه الصعب. كان يقرأ الأشعار في نفسه؛ لأنه لا يستطيع قراءتها بصوت عال بسبب التنفس غير الرتيب الذي يحدث نوبة جديدة من الربو.

بدأ بقصيدة مطلعها: «الحياة لم تمت يا أخي البريء من الخطيئة». لكنه نسي الباقي، فحاول الاستعانة بمجموعة بابلو نيرودا الشعرية الموجودة في حقيبة الظهر، فهو لم يكن يتخلّى عن «الأغنية العامة»(*). وفور استدارته شعر بتسارع في التنفس. اللعنة على هذا الربو! اضطرت المجموعة بسببه للتوقف في هذا الموقع الخطر. يجب أن أطلب من الرفاق أن يتركوني هنا، ويمضوا. ولا داعي للخوف عليّ، فهم ينتظرون دعماً من الرجال، إذ شكل

(*) ملحمة بابلونيرودا الشعرية: «الأغنية العامة».

فرانك باييس مجموعة من خمسة عشر رجلاً في سانتياغو، وهم يتوجهون إلى سييرا. لقد أصبح عدد الرفاق القدامى والجدد كافياً لتحرير سييرا من الباتيستيين. لكن هذا الربو...!

كان فيدل يصغي بشكل دائم إلى الأخبار من راديو الترانزستور. وزير الدفاع يعوي: «هناك مقابلة صحفية، يزعمون أن صحفياً أميركياً أعدّها مع فيدل كاسترو ـ إنها بدعة، وكذب وقح. لقد حوصر فيدل ومن معه من المخربين حصاراً لا تنفذ منه نملة. ولن يتمكن أحد من التسلل إليهم عبر الحصار. لقد نشر الصحفي الأميركي مينوز صوراً لفيدل كاستور، والعميل الأرجنتيني غيڤارا، زعم أنه التقطها».

انفجر فيدل ضاحكاً:

ـ أتسمع يا تشي! أتسمع كيف يتبجح. عندما ينشر مينوز الصور، سنكشف وجه النظام الكاذب من جديد. إرفع رأسك يا عجوز(*) ها هو الفيل يندب حظه من جديد باكياً من أذية الذبابة.

ـ اعطني سيجاراً.

ـ ماذا؟

ـ أعطني سيجاراً يا فيدل. أو اخرج لي الغليون من الحقيبة.

ـ لكن، لم تمضِ لحظات بعد على انتهاء النوبة.

ـ رائحة التبغ تترك أثراً طيباً في نفسي. والدخان يمنع الربو من اللعب بي.

ربَّت فيدل على كتف تشي، وقدم له سيجاراً.

مضى على التوقف في هذه المنطقة يومان، وفي اليوم الثالث لم يأتِ الفلاح الذي كان يؤمن الطعام.

وقف فيدل بجانب تشي والشكوك تراوده: «من المحتمل أن

(*) تقال تعبيراً عن الفخر.

يكون رجال السلطة قد قبضوا على صديقنا، وقد يعترف تحت التعذيب. يجب مغادرة الموقع فوراً».

قال سانتشيس الموجود في نقطة المراقبة إن مجموعة كبيرة من الجنود اقتربت، وتمركزت في قمة الجبل.

ـ يجب الوصول إلى سفح الجبل بسرعة. إننا هنا فريسة سهلة.

انسحب المقاتلون إلى المكان المشار إليه. ونوبة الربو عادت من جديد. وقف تشي متكئاً إلى بندقيته، وبدأت المدافع والرشاشات تصب حممها على تلك المنطقة التي أخلوها منذ دقائق. كان العدو يهاجم ويستند إلى معلومات دقيقة.

حاول تشي أن يخطو عدة خطوات، لكنه وقع على الأرض، فرفعه الفلاح كرسبو:

ـ هيا بنا!

حاول تشي تلبية الطلب، معتمداً على كرسبو وبندقيته. كان يتوقف عند كل شجرة، حتى يجمع أنفاسه المتقطعة. لكن مفاصل رجليه لم تعد تحت سيطرته، فكانت تخونه، ويسقط أرضاً.

وصل الباقون إلى سفح الهضبة، واستعدوا للمسير باتجاه آخر، أما كرسبو فكان عليه أن يحمل حقيبة تشي فوق عتاده.

ـ تعال، سأحملك!

ـ لا تستطيع.

ـ أساعدك على المسير!

كانت القذائف تقترب منهم شيئاً فشيئاً. فأحنوا رؤوسهم خوفاً من اكتشاف أمرهم.

ـ اتركني! لقد شارفت النهاية. اركض نحو الرفاق، فأنت تستطيع الوصول إليهم، وأنا أقوم بالتغطية.

ـ لا! بل ستأتي معي.

ـ لكن إذا...

لم يدع السعال مجالاً للحديث. قام كرسبو بسحبه عدة أمتار. لكن المصيبة كانت تتعاظم، فقد بدأ هطول المطر.

ـ لا أستطيع أكثر من ذلك! هيا ابتعد عنّي! قال تشي جاهداً.

صرخ كرسبو وهو يلعن كل من على وجه الأرض، وسحبه عدة أمتار أخرى على أرض موحلة. وقال:

ـ ستسير أيها الشيطان الأرجنتيني رغماً عن أنفك! وإلا أجبرك على ذلك الضرب.

ثم رفع بندقيته مهدداً.

زحف تشي ألى أقرب شجرة، والمياه تسيل على وجهه. مسح جبينه وعينيه بكم قميصه وقال:

ـ حسناً يا كرسبو، هيا بنا! سأتكىء عليك.

* * *

جمع فيدل وتشي قادة المجموعات، لإبلاغهم عن خطة الهجوم.

ـ خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، سنضرب العدو. لكن، لا يمكننا إعطاءكم تفاصيل عن المعركة وهدفها. علينا الدفاع عن أنفسنا من العملاء. أما المقاتلون فعليهم الاستنفار والاستعداد لإشارة الانطلاق. أثارت كلمات فيدل حماساً لدى قادة المجموعات. فقد تعبوا من هذه التنقلات المستمرة دون معركة. وعندما غادر الجميع، قال تشي لفيدل:

ـ لقد جمدنا المقاتلين فترة طويلة. لماذا لا نهاجم الشاحنات على الطريق العام؟ ونستطيع السيطرة عليها بسهولة ونحصل على الكثير، والشباب متعطشون لمعركة. لماذا تمنعهم؟

ـ إنني أفكّر بثكنة ألوڤيرد، فإذا سيطرنا عليها، ستسمع البلد كلها عن قوتنا الكبيرة. أما إذا هاجمنا الشاحنات العسكرية فسيكون الخبر عادياً، وكأنه مجرد حادث. يجب أن نركز كل

قوانا على ثكنة ألوڤير لأنّ الاستيلاء عليها لا يقدر بثمن.

ـ أتعتقد أن الشعب سيؤمن بقدرتنا على الانتصار؟

ـ بالضبط.

* * *

ها قد مضت ثماني ساعات من المسير الليلي، والمقاتلون يسيرون، ويعضّون على جراحهم التي لم تلتئم بعد. والأحذية سيئة جداً، حتى أن تشي كان يرى ضرورة إنشاء مدارس ومخازن أسلحة في المناطق المحررة، لا بل قبل كل شيء، يجب إنشاء معامل لصناعة الأحذية. وبينما هو يفكّر في طرح هذه المسألة للنقاش، أصدرت الأوامر بمحاصرة بيوت السكن، وعدم إطلاق النار إلا على الثكنة.

كلف الميدا بمهمة السيطرة على نقطة المراقبة الشمالية. وراؤول يقوم بهجوم مواجهة. أما تشي ورفاقه ففي الوسط بين الميدا وراؤول. وبيرس وجماعته يقطعون الطرق المحيطة بالمنطق لمنع وصول المساعدات إلى العدو.

بدأت المعركة عن بزوغ الفجر. كان فيدل إلى جوار تشي الذي كان يشاهد كاميليو من مسافة بعيدة، فغمرته سعادة عظيمة لوجود صديقه القديم على مقربة منه.

كانت النيران تنصب بغزارة من كل ثقب من الثكنة على الثوار. زحف تشي متقدماً نحو موقع العدو، وعندما وصل إلى منطقة مكشوفة تبعد حوالى ستين متراً، سمع أنين شخص ما. فزاد من حذره إذ اعتقد أن أحد جرحى العدو موجود في مكان ما قريب. وأول ما خطر له السيطرة على سلاحه.

ـ استسلم! صرخ تشي، استسلم ولن تصاب بسوء.

بقي الجو صامتاً، ربما كانت إحدى خدع العدو. انبطح على الأرض وأخذ يتحين الفرصة للانقضاض عليه.

زحف تشي بحذر شديد، وانقض على الجريح. إنه الرفيق ليال. أصاب الرصاص رأسه. بدأ تشي بتضميد جراحه، ونسي وابل الرصاص الذي يحيط به. فهو الآن طبيب، وعليه أن يقوم بواجبه. فتّش في جيوبه يبحث عن أشياء طبية، فلم يجد إلا ورقة. كان ليال فاقداً وعيه، ملقى على الأرض بلا حراك. لم يعرف تشي ماذا يفعل، وضع الورقة على الجرح. فجأة، دوت فوق رأسه صلية من الرصاص، انقلب عندها الطبيب إلى مقاتل، وصب حمم نيارنه على العدو.

بدأ ميندوس ألموسوس هجوماً مفتوحاً، معتقداً أن ظهره مقدس يحميه من الموت. لكن، اخترقت عدة طلقات جسده. وجرح الميدا في يده اليسرى ورجله. أدرك تشي عندها أنه لا مفر من الهجوم المفتوح. فالفجر بزغ، والنهار شارف على الطلوع، ولا مجال للاحتماء بأي شيء، والعدو لم يبخل بإطلاق النار. قامت مجموعة الميدا بإكمال الهجوم، وتمكنت من السيطرة على الموقع الأمامي للحراسة. وهكذا استطاعوا تحرير الطريق إلى الثكنة. أما مجموعة الرشاشات بقيادة جلميرو غارسيا فقد صبت حمماً نارية على الثكنة، وأسكتت حركتهم. وفي النهاية أجبر الجنود على الاستسلام.

بينما كان تشي يبحث عن الطبيب الحربي للثكنة، رأى ثلاثة ببغاوات مقتولة بالرصاص، فأدرك أي بركان من الرصاص قد صُبّ على الثكنة أثناء الهجوم.

قرر تشي أن يوكل أمر الجرحى من الرفاق إلى الطبيب الحربي، الذي سأله:

ـ كم لك في العمل؟ سأله وهو يرتجف رعباً.

ـ لماذا هذا السؤال؟

ـ متى حصلت على شهادة الطب؟

ـ منذ زمن بعيد.

ـ اسمع أيها الشاب، أنا عديم الخبرة، فقم أنت بعلاجهم. ألا ترى يديّ ترتجفان من الألم.

غسل تشي يديه كي يعالج الجرحى، وطلب من الطبيب مساعدته، لكنه كان في حالة رعب أنسته أصول الطب.

لقد اضطروا لترك اثنين من الجرحى، بعد أن أخذ تشي عهداً من الطبيب أن يعتني بـ «ليال وسيلروس»، شرط أن لا يصاب بأذى. أما بقية الجرحى: ماسيو المصاب في كتفه، ومانالس المصاب في رئتيه، والميدا المصاب في يده ورجله وآخرون، فكان على تشي أن يوصلهم إلى أقرب معسكر للرفاق. وعندما أخبر ليال وسيلروس إنهم مضطرون لإبقائهما في الثكنة، أجاب سيلروس بابتسامة. فهم تشي منها أنه يريد القول: «إنها النهاية. وداعاً أيها الرفاق، وليحالفكم النصر!».

في هذه الأثناء استعاد ليال وعيه، وأخذ يرجو تشي أن يجهز عليه، لأنه لا يريد أن يكون أسيراً بين أيدي رجال باتيستا.

ـ لقد اتفقت مع الطبيب على كل شيء. وأعطاني عهداً للاعتناء بكما، كما أنه لدينا العديد من الأسرى من رجال باتيستا، فلن يستطيع أحد المسّ بكما.

كان تشي يقول هذه الكلمات دون أن يعي ما إذا كان يقولها ليهدىء من روع رفاقه الجرحى فقط، أم أنه هو نفسه يؤمن بما يقوله. على كل حال، كان يراوده أمل بشفاء الرفاق.

قضى تشي ليلته مع الجرحى. وكانوا جميعاً مثارين. كانوا يدخنون، ويأكلون ما اغتنموه من خبز ولحم، دون أن يرغب أحد في النوم.

أخذوا يتحدثون عن بطولاتهم، وتحول الهجوم في تلك الليلة إلى معركة أسطورية، كان تشي يضحك من أعماقه، وهو يعدّ

الأعداء الذين سقطوا على يد كل واحد من هؤلاء الرفاق. أخذ يصغي إلى أحدهم باستغراب، حيث كان يتحدث متفاخراً بإجهازه على عدد من جنود باتيستا يفوق العدد الموجود داخل الثكنة قبل الهجوم. وكان يجد متعة بالإصغاء إلى نقاشات كانت تدور بين الشاعر كاليكستو موراليس والشاعر كروسيتو.

لقد حاز كاليكستو موراليس على لقب «بلبل السهول» منذ رحلة السفينة «غرانما». وكان يفتخر بهذا الاسم، حتى أنه كان يرفض أن يسمى بغيره.

أما كروسيتو فكان رمزاً للشاعر القروي. فكان يكتب أشعاره بشكل غير مكتمل. ويحاول الرد على ما يقوله كاليكستو موراليس بالقافية نفسها، ولم يكن يسميه: «بلبل السهول»، بل «وقواق من سييرا».

كانوا يريدون كتابة قصيدة عن الثورة. فعرض كروسيتو على تشي عدة أبيات شعرية عن رحلة «غرانما» من المكسيك إلى كوبا. كانا يسيران في طريق وعرة، حيث مرات عدة أيام دون أية مواجهة مع العدو. كانت الطريق ضيقة، ويسيران جنباً إلى جنب، يأكلان الفاكهة ويتحدثان بسرور، قال تشي:

ـ للأسف، نفتقد إلى الورق. لكن، سيكون رائعاً لو تمكن كل مقاتل من كتابة أشعاره واحتفظ بها في حقيبته!

ـ سيكون رائعاً لو استطعت أنا الحصول على الورق، وكتبت أشعاري.

ـ هل تنسى أشعارك إذا لم تكتبها؟

ـ لا، لا شيء منسي. فأنا أحفظها عن ظهر قلب. وبعد انتصار الثورة سأنقلها على الورق.

ـ هيا، هيا اكمل في قراءة أشعارك. طالبه تشي بإصرار. وأنا سأقرأ عليك بعضاً من أشعار بابلو نيرودا.

* * *

جلس بعض قادة الجيش الثوري مع فيدل وتشي في كوخٍ قروي.

ـ من دون رفيقنا فرانكو باييس الشجاع، الذي يزودنا بشكل دائم بالتموين من المدينة، والذي يشكل صلة الوصل مع ثوار المدينة، لكان نضالنا عسيراً إلى حد يصعب تخيّله.

ـ يجب أن نوجه له الشكر، ونتمنى له السعادة عبر رسالة نرسلها إليه.

أحضر أحدهم ورقة قسّمت إلى عمودين. في أحدهما نكتب التوقيعات، وفي الآخر تكتب الرتب.

لم يتمكن بعض الرفاق من التوقيع لأنهم أميون. وعندما جاء دور تشي، ألح فيدل أن يكتب رتبة كوميندان مقابل اسمه.

وهكذا، حاز إرنستو تشي غيڤارا على هذه الرتبة، وعين قائداً للقطاع الثاني ولشدة ما افتخر بذلك، أخذ في السعي لإثبات قدرته على القيام بتلك المهمة.

ـ ذكرى 26 تموز تقترب. فليكن هذا اليوم كابوساً على جيش باتيستا. سنحتفل في المناسبة بمهاجمة جيوشه.

عندما سلّمته سيليا النجمة الصغيرة ـ التي تميزه ككوميندان ـ قال لها:

ـ يعتبر سانتشيس موسكيرا من أقسى ضباط باتيستا، ويملك من الوقاحة بحيث إنه يحاول اجتياح سييرا. كما يعتبر من أكثر قادة باتيستا حباً للدماء، يهاجم بيوت الفلاحين، ويترك آثاره الدموية، التي يستمتع بها كمن يشرب كأساً من البيرة. سأحاول ضرب جنوده، وأضع حداً لخنزيريته.

علّق فيدل قائلاً:

ـ إننا نترك لك حرية كاملة في اتجاه هذا الهدف. ونرغب أن نعطي المناسبة حقها.

وصل تشي إلى خيمته بعناء كبير كان يسير متكئاً على بندقيته، ويحمل منظاراً، ووصلات الرصاص، الغنائم، تتدلى من صدره وأكتافه. وعلى رقبته علقت كاميرا للتصوير.

عند وصوله مباشرة، استقبله الصحفي ماسيتّي. وبعد السلام، دعاه إلى الكوخ:

ـ فلنتكلم فيما بعد. أما الآن، فأنا منهك من التعب، ومعدتي تعصرني جوعاً، هيا كل معي، عندنا مربّى الموز، وقليل من الفول.

جلس ماسيتي مواجهاً له. ووضع تشي بندقيته إلى جانبه بأناة ممزوجة بحب، وألقى بالذخيرة إلى منضدة كانت تبعد عنه مترين. فرك كفّيه، وحرّك رأسه إلى الخلف، قائلاً، وكأنه يحدث نفسه:

ـ إننا نقاتل سانتشيس ماسكيرا، أحد أبرع مصاصي الدماء لدى باتيستا. إنه يهاجم سييرا باستمرار، ويفعل العجائب بالسكان. قاربنا على إحكام الطوق عليه أكثر من مرة، لكنه كان ينجو هارباً.

جاء الفلاح بالطعام، وكان فخوراً بتوقف تشي عنده. استعرض تشي الطعام الشهي، كأنه طعام العيد. وقفزت إلى ذاكرته تلك المسيرة الطويلة، التي لم يجدوا فيها ما يأكلونه.

لم يكن يشعر برغبة في الحديث مع الصحفي الأرجنتيني، لكنه يدرك في الوقت نفسه مدى الفاعلية الدعائية التي تعطيها هكذا مقابلة عندما تنشر في الصحف. لقد علم الأسئلة مقدماً. فجميع الصحفيين يشيرون إلى أن الصراع يدور من أجل «انتصار الشيوعية».

تناول تشي غليونه بينما كان يلوك آخر لقمه في فمه، وبدا متعباً، فمدّ رجليه إلى الأمام، فكم كانتا تؤلمانه بعد ذلك المسير الشاق من القيادة إلى المعسكر! وراودته فكرة خلع الحذاء. تناول

ماسيتي سيجاره. أما تشي فأخرج من فمه أول دفعة من الدخان وقال:

ـ لنبدأ.

ـ لماذا قدمت إلى هنا؟

ـ أجاب تشي بحزم:

ـ توجد إمكانية واحدة ووحيدة لتحرير أميركا اللاتينية من الديكتاتورية، هي الإطاحة بها. ويجب القيام بذلك بأية طريقة. وأفضل الطرق ـ هي أفضلها صراحة ووضوحاً.

ـ ألا تخاف من اعتبار مشاركتك في المعارك تدخلاً في الشؤون الداخلية لبلد آخر؟

ـ وطني كل أميركا اللاتينية، وليس الأرجنتين وحدها.

توقف قليلاً، ثم نظر في وجه ماسيتي المضطرب، وتابع حديثه المقنع:

ـ لدي مثل جيد أمتثل به، ألا وهو خوسيه مارتي. وفي وطنه بالذات أحاول ترجمة أفكاره إلى واقع. أنا لا أعتبر ذلك تدخلاً، خصوصاً عندما أعرّض كل ما أملك، حتى حياتي، للخطر من أجل القضية العادلة. إنني أقدم المساعدة لشعب هبّ للإطاحة بطاغية. وهناك دولة أجنبية تقدم لهذا الطاغية المساعدات بشتى ألوانها، وتضع تحت تصرفه السلاح والطائرات، والمال والخبراء، والغريب أنه لا توجد، ولو دولة واحدة، في أميركا اللاتينية تعلن موقفاً ضد تدخل الولايات المتحدة في الشؤون الداخلية لكوبا. ولا توجد دولة تتهم اليانكي بمساعدة باتيستا كي يستمر باضطهاد شعبه. بينما نجد الكثيرين ممن انشغلوا بوجودي هنا. أنا الأجنبي الذي يتدخل في الشؤون الداخلية، ويساعد الجيش الثوري.

كان تشي يلقي نظرات غامضة على ماسيتي، ويتحدث منتقياً

الكلمات المناسبة انتقاءً دقيقاً. فقد كان يقاتل إلى جانب مقاتلين سيئي التدريب، والعناد، وضد عدو يتمتع بقوة يصعب مضاهاتها بالسلاح والعتاد والرجال. كان الأعداء جيدي التسليح والتدريب، وكان باستطاعتهم تحطيم الثوار في فترة من الفترات. لكنه كان يتحدث عن أعدائه بطريقة كان النصر يبدو فيها على مقربة منهم، وأن المسألة مسألة وقت فقط. ثم رفع قبعته إلى الخلف، وظهرت على جبينه صفحة لفحتها الشمس. فبادره الصحفي بالسؤال:

ـ هل يمكننا تسمية هذه الثورة: ثورة شيوعية؟

اضطر ماسيتي إلى تحمل نظرات تشي القاسية:

ـ هذه الثورة تحمل دون شك طابعاً وطنياً. أو بالأحرى ثورة أميركية لاتينية، موجهة ضد سيطرة اليانكي. كثيراً ما يزعمون أنني شيوعي، ولا يوجد صحفي واحد في سييرا لم يكن شغله الشاغل التأكد من أفكاري، ووجهات نظري، وعلاقتي بالشيوعيين الغواتيماليين. وطالما اعتقدوا أنني عضو في الحزب الشيوعي. لماذا؟ لأنني كنت إلى جانب حكومة العقيد فاكوبو ارينس.

ـ لكنك كنت عضواً في الحكومة.

ـ هذا تلفيق. فقط عندما نظمت الولايات المتحدة اعتداءً مسلحاً، قمت بصحبة مجموعة من الشباب بالتصدي لهذه القرصنة من قبل شركة «يونايتد فروت». كان يجب العمل بكل الوسائل من أجل الدفاع عن الثورة في غواتيمالا. لكن ذلك لم يحصل. وشاركت في تنظيم المقاومة. حتى بدأت أيدي الإمبريالية الأميركية باعتقال وشنق كل من مسّ مصالح الـ «يونايتد فروت» بشعرة. عندها انتقلت إلى المكسيك. وهناك، التقيت من جديد بأعضاء «حركة 26 تموز» الذين كنت قد تعرفت إليهم في غواتيمالا. وفي المكسيك ربطتني علاقة حميمة مع فيدل كاسترو وأخيه راؤول. ومنذ تلك اللحظة كانت خطة الانتقال إلى كوبا

جاهزة. وبعد حديث استمر ليلة كاملة مع فيدل، أصبحت طبيب الفرقة. وكان لمعرفتي بمختلف بلدان القارة، وبعد الكابوس الذي عشناه في غواتيمالا، لم يكن ثمة داعٍ لإقناعي بضرورة الالتحاق بالمناضلين ضد أي طاغية من طغاة أميركا اللاتينية. وفيدل نفسه أدهشني بإمكانياته الفائقة. إذ كان قادراً على تحطيم أكبر العقبات. وكان مؤمناً بشكل مطلق بإمكانية الانتقال إلى كوبا، حيث يبدأ النضال الذي يكون النصر حليفه حتماً. لم يكن يشك لحظة في ذلك. وبصراحة، أصابني بعدوى التفائل. يجب العمل. لقد حان الوقت للتوقف عن العواء والبدء بممارسة عمل محدد يوصلنا إلى الغاية المطلوبة. لقد أراد فيدل أن يبدأ بالنضال ليبعث الروح في شعبه من جديد. وهو الذي قال في 1956: «إما أن نحقق الحرية وإما أن نبقى معذبين!». أراد أن ينتقل إلى كوبا على رأس الجيش الثوري قبل نهاية ذلك العام.

وهنا، انقطع الحديث لسماع النشرة الإخبارية لإذاعة الثورة. كان تشي يستمع إلى الأخبار بانتباه كلّي. وبعد انتهاء النشرة نظر إلى ماسيني الذي سأله:

ـ في هذه المنطقة الواقعة تحت سيطرتكم، رأيت أشياء كثيرة. رأيت أماكن للعمل الحرفي. وكما علمت، لقد تمت بفضلك. ورأيت مستشفى عسكرياً صغيراً، ومخبزاً، ومعملاً لصنع القنابل، ومعمل أحذية، وآخر لدباغة الجلود. لكنها متفرقة، فما هو السبب؟

ـ في البداية، وللتوضيح، أقول لك إننا نطمح للوصول إلى الاكتفاء الذاتي. ففي المناطق المحررة، نباشر ببناءالمدارس والمستشفيات الخ... لكن أبعدناها عن بعضها كي لا تكون فريسة سهلة لقصف باتيستا. فهو يقوم بالغارات الجوية باستمرار، أما نحن فنتقن الدفاع عن أنفسنا.

ـ رأيت في مصنع القنابل ذخيرة بنادق حديثة الصنع. وأخبرت أنها من صنع يديك، فهل هذا صحيح؟

ـ بالطبع، لأن من ضمن مهامي بناء معامل للتسليح.

لم يكن تشي يشعر بالراحة في تلك اللحظات. وكأن شيئاً ما يضيق على صدره. لم يكن قادراً على التركيز ـ ثم غرق في التفكير لفترة من الوقت، لم يزعجه فيها ماسيتي ـ فجأة، قفز من مكانه، رفع صوت المذياع، وأخذ يلف بمفتاح الموجات. وسرعان ما أذيع خبر رسم على وجهه علامات حزن: فالاضراب العام فشل. عندها لم يعد يعطي أدنى انتباه للصحفي، وكأنه لم يكن يعرفه من قبل. لقد كانت تشغله مشاكل أخرى. فجأة، انتصب واقفاً، واختفى من البيت. لم يتمكن الصحفي من إتمام الحديث معه إلا بعد مغيب الشمس فقط.

ـ ما هو سر دعم الفلاحين للثورة، ولفيدل كاسترو، بحسب اعتقادك؟

ـ لقد عانوا الكثير من إرهاب الاقطاع، وجنود باتيستا السفاحين.

والفلاحون كانوا أول من شعر بمصلحتهم بالثورة وبفائدتها. لقد بدأ تطبيق الإصلاح الزراعي.

ـ كيف تم ذلك وأنتم لا زلتم تقاتلون؟

ـ حتى الآن، وزعت الأرض على ما يقارب الستين ألف فلاح، ولا نزال مستمرّين.

ـ ما هو النظام الذي تبنون إصلاحكم على أساسه؟

ـ ليس هناك من نظام معقد. في الجوهر يكمن نظام معاد للبيروقراطية.

لقد حددنا مساحة الأرض التي تكفي لإعالة عائلة من شخصين، وأربعة أو أكثر. وهكذا أصبحت لدينا معطيات محدّدة،

أخذنا نوزع الأرض على أساسها. نوزع الأرض أولاً، ثم نتفق مع الفلاحين على نوع الزراعة، ومن ثم نقدم لهم البذار والآلات.

ـ هل يعقل أنكم خططتم لكل ذلك قبل سفركم على متن «غرانما» من المكسيك؟

ـ لم نكن نحلم بكل ماحققناه حتى الآن. لقد أصبحنا أولئك الثوريين الحقيقيين الذين تراهم أمام عينيك، لقد أصبحنا في قلب الثورة، وأتينا لطرد الطاغية. لكننا أدركنا أن الفلاح بحاجة إلى الحرية أكثر من أي شخص آخر. إننا لا نرغب في الأحاديث الصارخة. بل كل ما نبغيه هو تقديم المساعدة الحقيقية والفعالة التي تسهم في تحسين أوضاع معيشتهم. فكل متر من تلك الأرض التي يفلحها الفلاحون ليس لنا، إنه ملكهم. ونحن نحقق لهم الحياة الأفضل. بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في المناطق المحررة، الثورة انتصرت عندهم اليوم.

دخل عليهم رجل مسلح بكامل عتاده، همس في أذن تشي. فهز تشي رأسه. ووضع عدة أمشاط من الرصاص على كتفه، وتناول بندقيته، ثم قال:

ـ للأسف، أنا مضطر للمغادرة، فالثورة لا تنتظر.

* * *

جلس تشي على العشب يدخن غليونه، وتحلق الرفاق من حوله يأكلون لحم بقرة كانوا قد ذبحوها. أما مراسلته الحربية إلييدا مارتش، تلك الفتاة الكوبية، فجلست إلى جانبه تحدثه عن الوضع العام في المدينة. كانت متعبة، لكنها رغم ذلك، كانت تبدو جميلة. في هذا الوقت بدأت إذاعة الثورة ببث نشرة الأخبار: «لقد باء الهجوم بالفشل. قامت قوات العدو المؤلفة من اثني عشر ألف جندي، تدعمها دبابات تشيرمان، بهجوم واسع على قوات

الجيش الثوري، مستخدمة النابالم. وبعد معركة حامية، استطاعت قواتنا أن تصد الهجوم، وأن تسيطر على محطة إرسال للعدو. وتمكنت من حل الشيفرة. فأصدرفيدل كاسترو أوامر كاذبة إلى الجيش، دفعته إلى قصف مواقعه».

علت ضحكة واحدة من تشي وإلييدا. ثم أخذا يصغيان إلى كلمات متقطعة: «فشل الهجوم الواسع. تكبد جيش باتيستا خسائر فادحة. قتل أكثر من ألف جندي. كسرت شوكة العدو».

ـ لقد قصفوا مواقعهم. آه، أي محنك هذا، فيدل! نحن لا نملك الطائرات، لكننا نستخدم طائرات باتيستا.

نهضت إلييدا من مكانها، لأن عليها إنجاز مهمة جديدة. همت بوداع تشي، لكنه بقي جالساً. شد الواحد منهما على يد الآخر، ونظر كل منهما في عيني الآخر. استمر تشي بالشد على يدها، تعبيراً عن تقديم عواطفه. توسعت عينا إلييدا قليلاً وكأن شرارة عبرتهما.

* * *

كان ظلام الليل حالكاً. وضوء يتيم يقترب، ينبعث من سيارة «جيب» يضيء الطريق أمامها. وأناس يسترسل شعرهم على الأكتاف، وتتدلى فتائل لحاهم من ذقونهم. كان التعب يحفر قنوات في وجوههم. يحملون السلاح الذي بدا جزءاً منهم. يلبسون ملابس مرقطة، وأحذية عسكرية مهترئة. يجلسون على قارعة الطريق، يتحدثون عن بطولاتهم في تلك المعارك.

هذه المرة أيضاً، كان الزائرون القادمون في الجيب يسألون عن تشي غيڤارا، وبحوزتهم معلومات عن المدينة. كان القادمان سييرو وديبغو.

كان تشي يقف قرب النار، يتكىء على بندقيته، ويلبس معطفاً أسود، تتشابك من فوقه سلاسل الرصاص. ويتدلّى على خاصرته

مسدس الرڤولڤير، الذي كان من الغنائم، والذي لم تكن معه سوى أربع طلقات. كان من الممكن أن يطلقها ويرمي به إلى القمامة، لكنه أبقى عليه إلى وقت قد تحسم فيه هذه الطلقات أشياء كثيرة.

لقد جاء سييرو ودييغو لوضع إمكانياتهما تحت تصرف الثوار.

لوح تشي لهما.

ـ إنه يشبه جنكيزخان. همس سييرو لصاحبه الذي أجابه:

ـ بالفعل، إنه مثله.

سمع تشي ما قالا. لكنه لم يفعل شيئاً. ابتسم وقدم يده للمصافحة. في هذه الأثناء انتابه سعال خفيف.

ـ لقد جفّ كل ما في جسمي. قال ذلك، وكأنه يحدّث نفسه.

وقف الضيفان بالقرب من تشي، وكانا يبدوان مرهقين من جراء السفر.

اقترب تشي من سييرو، وقال:

ـ هكذا إذاً، أنت لا توافق على الإصلاح الزراعي.

تلعثم سييرو، ولم يتمكن من انتقاء كلماته. لكنه أبدى اعتراضه:

ـ لا طبعاً، أنا مع الاصلاح الزراعي. يجب أن نفرض عليهم ضرائب باهظة كي نتمكن من شراء أرضهم بأموالهم نفسها. ثم نبيعها للفلاحين بسعرها الحقيقي، ونقدم لهم الدعم بمختلف الأشكال، كالقروض مثلاً.

ـ صه! كيف دخلت هذه الفكرة إلى رأسك؟ إن ما تقوله ليس سوى شعار رجعي. فمن غير المنطقي أن تأخذ المال مقابل إرجاع الأرض إلى الفلاحين. قال تشي ذلك وهو يخرج الدخان من فمه، ويقترب من سييرو إلى حد كاد السيجار معه أن يلامس وجهه. لكن سييرو أصرّ على حديثه:

ماذا جرى لك؟ أتريد تقديم كل شيء إلى الفلاحين. ثم يحولونه إلى بور غير صالح إلا للموتى، كما في المكسيك؟ على الإنسان أن يشعر أنه من دون عمل لن يحصل على شيء!

رفع تشي يديه إلى الأعلى، كمن يطلب الرحمة من السماء:

ـ اللعنة! أتسمعونه.

تحركت نسمة هواء باردة، جمع تشي معطفه، وفرك سييرو يديه، وحاول جاهداً تقديم أساس لموقفه:

ـ تشي، إنني أفهمك. لكن من الخطأ أن نعمل علناً. أتعتقد أن الأميركيين سيقفون مكتوفي الأيدي عندما ندفع الثورة إلى الأمام، وبهذه السرعة؟

قذف تشي سيجاره بانفعال، فوقع على التراب المبلل، وانطفأ بسرعة.

ـ آخ، هكذا إذاً. فأنت من أولئك الذين يدَّعون إمكانية صنع الثورة من خلف ظهر الأميركيين. إنه علينا منذ البدء تحويل الثورة إلى صراع مع الإمبريالية.

هبت رياح أكثر برودة. فهم سييرو بالذهاب، لكن تشي أمسك به وقال:

ـ قف! يجب مناقشة هذه القضية.

استمر النقاش عدة ساعات، تحدث خلاله تشي عن آمال وأحلام الفلاحين الفقراء. نام المقاتلون جميعاً ما عدا الحرس. وكانت أسنان سييرو لا تطبق على بعضها، بسبب البرد القارس مع حلول الصباح.

قدم تشي سيجاراً لسييرو، لكنه هز رأسه قائلاً:

ـ شكراً، لا أريد، وأسناني لا تستطيع حمله. يا له من برد! لقد تجمّدت يداي.

ـ حسناً، هيا بنا إلى النوم.

كان تشي غارقاً في نومه عندما دوّى صوت الرصاص. قفز بسرعة، وتناول بندقيته مجهزاً نفسه للمعركة. لكن، تبين أن أحدهم أطلق عدة رصاصات بالخطأ، فأصابت عدداً من الرفاق. عاد تشي إلى النوم لوجود أطباء آخرين بإمكانهم معالجة الجرحى.

في اليوم التالي أخبر تشي الضيفين بوجوب استمرارهما في تقديم المساعدة، وضرورة تحقيق وحدة سياسية، إذ هناك العديد من المجموعات التي تعمل من دون قيادة موحدة، مما يشكل سبباً في تشرذمها.

ـ بالإضافة إلى ذلك، نحن بأشد الحاجة إلى ذخيرة. لقد كسرنا العمود الفقري لجيش باتيستا، وصرفنا لذلك كميات كبيرة من الرصاص. والغنائم شارفت على الانتهاء. فنحن نحتاج إلى السلاح والمال. لم لا تنظمون سرقة بنك في سانت سبيريتوس؟ هناك إشاعات في سييرا أن الثوار سيقومون بسرقة البنوك.

ـ ماذا تقول يا تشي! نحن لا نقوم بذلك. هذا بسبب عزلنا عن الحلفاء الذين يضعون أموالاً في البنوك. ثم نحن لا نحتاج إلى سرقة البنوك، فقد جمعنا ما يزيد على الخمسين ألف بيزو، وهذا مبلغ لم تمتلكه الثورة في يوم من الأيام.

ـ هراء! لماذا لا ترى أن أي فلاح لم يحتج على شعار «الأرض لمن يفلحها»؟ ولماذا لا ترى أنه لم يقف أحد ضد هذا الشعار باستثناء ملاكي الأرض؟ فالشعب المناضل سيدعم هذه الفكرة، لأنه لا يوجد عامل واحد يملك فلساً واحداً. بالطبع، هناك بعض المستغلّين الذين يدعموننا بالمال، وهو فائض استغلالهم. وهم يطمحون من وراء ذلك إلى كلمة شكر، لأنهم يعرفون أن الثورة ستنتصر. إنها مسرحية ـ مهزلة! فعلاً، إنها مدعاة للسخرية. لكن، لن تكون هناك رحمة، خذوا ما في البنوك من أموال، والأغنياء سيدفعون نصيبهم في كل الأحوال.

ـ لكن، يا تشي...

ـ أنا كثوري، آخذ هذه المسؤولية على عاتقي. وأنا على استعداد لتقديم تقرير عن كل نشاطاتي عندما تطلب القيادة الوطنية ذلك، وأتقدم للمحاكمة أمام أية محكمة ميدانية للثورة. سأقدم تقريراً عن كل قرش وصلنا. أما الآن، فاذهبوا! لقد تحدثنا عن كل شيء، ونفّذوا الاستيلاء على البنوك!

ـ نظر سييرو ودييغو إلى بعضهما نظرة استغراب، وسارا إلى المدينة.

كان ماريو إسكالون فرديسيا ـ فلاح من محافظة ـ إريينته ـ يسير إلى جانب تشي، والكوميندان غارق في التفكير إلى درجة أصفر معها وجهه.

ـ ماذا حلّ بك يا كوميندان؟ لماذا غاب المرح عنك؟ انظر! بعد هذه المعاناة، وتلك المعارك القاسية، أصبحنا نتقدم باتجاه سانتا كلارا.

نظر تشي إلى صديقه المحارب القديم، وهو يداعب سلاسل الرصاص المعلقة على كتفه، وقال:

ـ لقد أمرنا فيدل بتحرير مدينة سانتا كلارا، وسنقوم بذلك بالطبع. لكن، ستكون المعركة طاحنة. والرجال متعبون، وأحذيتهم مهترئة، أكلت من أرجلهم حتى أنزفتها. إننا مسلحون بشكل سيء، وكل ما لدينا هو ثلاثمئة رجل فقط.

ـ لكننا مجربون في المعارك. لقد اختبرنا في أقسى المعارك وأعنفها، ونهب أنفسنا لقضية الثورة حتى العظم.

ـ أعرف ذلك. وتكمن قوتنا في معنويات المقاتلين، لكن العدو وضع ما يزيد على الثلاثة آلاف جندي في سانتا كلارا. وهم مسلحون بشكل جيد، وغير منهكين من السير وطوله. ناهيك

عن التحصين الجيد، ولديهم ثكنات ودبابات وطائرات وذخيرة لا تعد ولا تحصى.

أشعل تشي سيجاراً جديداً، وتابع كلامه:

ـ ماذا نفعل بهذه الدبابات؟ هذا السؤال يعذبني طول الوقت. لكن، يبدو أن شيئاً ما بدأ يتبلور في مخيلتي. فالمشكلة تكمن في ضرورة إجبار الدبابات على التوقف حتى نتمكن من تدميرها.

ـ يمكننا نصب كمائن للدبابات. فقد جربنا ذلك ونجحنا بشكل رائع.

ـ صحيح يا ماريو. لكن، هذا لا يمكن تنفيذه في شوارع سانتا كلارا.

ثم فرك جبينه بأصابعه، واستغرق في التفكير..

ـ إننا بحاجة إلى شجر النخيل. نصنع منه عوائق للدبابات. فإذا حاولت الدبابة المرور بين النخيل، سيدور الجذع تحت جنزيرها، وتتوقف.

ـ بالضبط يا كومينداني. هكذا سنفعل. عندها سيكون النخيل أسفل الدبابة، ونضربها بقنابلنا.

أصبح بإمكان تشي أن يضحك قبل أن يرمي السيجار من فمه. ربّت على كتف ماريو. هكذا يكون الثوار، كلهم حماس، وينضحون بالسعادة.

كانا يسيران عبر حقول قصب السكر الممتدّة أمام ناظريهما حتى الأفق. ولم يكن شجر النخيل مرئياً بعد.

ـ بعد الثورة علينا زراعة الكثير من هذه الأشجار. لقد قطعوا كل شيء من الجذور على هذه الجزيرة. وماذا يعني النخيل لليانكي الأميركي؟ إنهم مهتمون بالسكر، وعلى الجزيرة أن تراعي رغبتهم.